# نوكيا

باسم سليمان



# نوكيا

باسم سليمان

الإنسان ربّ حين يحلم وشحّاذ حين يفكّر.

هيلدرين

**القلفة**

........

..........

- عضوكَ سيفٌ مغمود، أمّا أنا ومحمود، فسيفانا قد شهرناهما منذ الأسبوع الأوّل لولادتنا، لذلك يحقّ لنا الزّواج بأربع إناث، فهما قد تأهّبا للقراع منذ نعومة أظفارهما. هذا السّبق الوجوديّ يجب أن تقرّ به، أمّا مزايداتكَ والميزات التي خلعْتَها على زائدتك اللحمية، من سهولة ممارسة العادة السرية دون بصاق أو صابون، وما تؤمّنه من متعة أكبر بسبب مساحة الجلد المكتنز بالنهايات العصبية، وأنّ الممارسة لديك باثنتين مما لدينا، فالواقع يكذِّبها ولا تنفعك! فلا يتساوى السيف المثلّم من كثرة الضراب والسيف الصدئ في غمده، حتى أنّك تستطيع معرفة شهرة أعضائنا من ولع النساء الغربيات،والعناء الذي يتكبدنه ليحظين بمضاجعة مَنْ يشتهر بجعل أربع نساء ينمن وهنّ منهكات الفروج! أضفْ على ذلك ما قرره الطب من منافع الختان.

- بما تفسران ختان البنات الذي وجد أساسه في قطع شهوة الأنثى؟ وما رأيكما بما أكّده الطب، من أنّه يخفف من ثورة الأنثى الجنسية، ويجعلها نهبًا لأحلام لا تتحقق، فتصبح مخلوقاً

معقداً كالشارب من ماء البحر لا يرتوي، فيقضي عمره في ملاحقة السراب. أليست الحور العين نتيجةً لهذا الحرمان؟ أمّا هذه الجلدة، كالسرج للحصان، فتجعل ركوبه ممتعاً ولا تتركك‍ما بقرحات وجودية، أو في هلوسات آخرةٍ تقضونها في المضاجعة!

- الذكر فزيولوجيته مختلفة عن الأنثى ولا وجه للمقارنة!

****** ****** ******

لم يكن من الممكن أن يختتم هذا الجدال إلّا بحكم خبيرة في أعضاء الرجال ومن غير رغدة! امرأة في الأربعين مرّ على فرجها آلاف مؤلّفة.

لم نكن نملك إلا مئةً وخمسين ليرة، والسعر لديها كان بألفٍ لفنجان القهوة السريع، فليكن، الموضوع سؤال وجواب! ومن المؤكد أنّها ستزهو بنفسها، فلا نعتقد أنّ أحدًا من الرجال قد سألها هذا السؤال، ولربما ترى فيه وجه فائدة غفلتْ عنها، فترفع سعر فنجان القهوة لديها، إن كان بهيل أم بدونه!

طرطوس مدينة مكشوفة، إنّها قرية كبيرة، تشعر فيها بأنكَ معروف جدًّا، لذلك تسللنا إلى بيتها في العاشرة صباحاً، وما من أحد سيظنّ بنا، فهي لا تبدأ عملها -حسب ما سمعنا- إلا مساءً. رسمنا خط سيرنا إليها وفق خطّة مدروسة، فكان الأهم كيفية قرع الباب لإيقاظها، والتعبير الذي يجب أن تراه على ملامح وجوهنا؛ ليقنعها بعدم الصراخ بصوت يصل لآخر الشارع الجانبي الذي يطلّ بيتها عليه، ومن ثمّ علينا أن نجعل المئة والخمسين ليرة ظاهرة، في حين يتولّى داني سؤالها، ويبقى محمود خلفنا تحسباً، وبعد هذا التخطيط والتحليل؛ كانت علامة البله النتيجة الحاسمة التي يجب تقديمها لرغدة كملمحٍ لوجوهنا أو ما يمكن أن نطلق عليه: الجديّة البلهاء.

صعدنا الطوابق الثلاثة، وأمام الباب وقفنا كمثلث متساوي الضلعين، قاعدته تستند إلى الباب. ثلاث دقات على الجرس وبعد ثوانٍ نعيدها. اهتزّ الباب كأنّ نسمة خفيفة مرّت من قربه، وانفتح على عمودٍ من لحم، وقبل أن تباغتنا بردة فعلها، كان داني يسرد ما اتفقنا عليه كتلميذ عينه على العلامة التامة أمام أستاذه:

سيدتي المحترمة، أرجو منكِ أن تستمعي إلينا، فنحن -والله- لا نريد إزعاجك، لكن للضرورة أحكام! وأنت الوحيدة القادرة على إجابتنا وإلّا صداقتنا مهددة بالزوال.

كان وجهها الناعس قد استيقظ تماماً، وعلتْه غرابة المستيقظ من كابوس، في تلك اللحظة دفعتُ بالمئة والخمسين ليرة أمام بطنها، وتابع داني الكلام:

وهذا ثمن الجواب الذي نريده منك!

عند كلمة الجواب تحركتْ حركةً عنيفةً، وأمالتْ جسدها بعيداً عن قوس الباب لتدفعه بيسراها بقوةٍ. مددتُ قدمي التي هُرسَتْ بين الباب وإطاره لمنعه من الانغلاق بينما كتمت آهات الألم المنبعثة من قدمي، في نفس الوقت، بدأ داني توسلاته:

من أجل الله، أتوسل إليك، كرمى لله!

اللغة الفصحى التي أثارتْ استغرابنا، عللّها داني بأنّ نطقه بها، يجعله أكثر قدرة على الإقناع! فجربتُها في محاولةٍ لصيد أنثى، فالتفتتْ إليّ وابتسامة عريضة تعلو وجهها، وعندما غمزتْ الصنارة، تأكدتُ من صحة تعليل داني، فهل اعتبرت لغتي الفصحى مجرد حماقة لا يرتكبها إلا عاشق مولّه! أمّا داني؛ فساق ما حدث دليلاً على أنّ النساء يضحكن مما ندعوه التفكير المنطقي، لأنّه يتحول إلى لهاثٍ فيما بعد! فلا يمكن لكائن أن يكون منطقياً وله رأسان؛ واحد فوق كتفيه، وآخر بين رجليه، وكعادتي،عارضتُ نظريات داني قائلاً:

منطقية الرجل تكمن في رأسيه، إذ تعاكس هذه النظرية وتؤكّدها ضحكات المرأة، فكيف لرأس واحد أن يملأ فمين بالكلمات، فم الوجه وفم الحوض!

فُتِح الباب من جديد، حررتُ قدمي محاولاً منع تأوهات الألم من الخروج من حلقي، الألم سكنَ تلقائيا، عندما تلفظتْ رغدة : أأنتم مجانين؟

فردّ ناطقنا الإعلامي وباللغة العربية الفصحى:

سيدتي، نحن في قمة العقل، وطالب العلم يذهب إلى الصين ليعرف الجواب! والجواب لديك، ونحن لسنا متطفلين، ونعرف أن وقت عملك لم يحن بعد.

تبتسم: ما هو سؤالكم؟

فتابع داني: أرجو ألا يسبّب لك إحراجاً.

تهمهم، بينما استجمع داني صوته لطرح السؤال عليها بلهجة علمية خالصة: سيدتي بحكم خبرتك أيهما أحسن، العضو المطهر أم غير...؟

تنفجر ضاحكة وتكرر: أنتم مجانين!

فأجابها داني بكل وقار: عفواً سيدتي، أرجو الإجابة.

دفعتُ بالمئة والخمسين ليرة إلى يدها، فازدادتْ ضحكاً: ما هذا الصباح! لكنْ-والله- تستحقون فنجان قهوة!

ما حدث كان غريباً والأغرب ألا ندخل! إنّها فرصة العمر، تهادتْ أمامنا بقميص نومها الذي يكشف عن فخذيها بالكامل، وإذا أسقطتَ قلماً على الأرض، وانحنيت لتلتقطه، سترى كيلوتها الأسود، قليلاً من الانحناء يكفي! همس محمود.

جلسنا في غرفة الضيوف /الزبائن. كان بيتاً عادياً، فيه لوحات، إطارها أثمن منها، وطقم من الكراسي المخملية اللون. تسللتْ رائحة القهوة إلى أنوفنا، لم أكن مثاراً حقيقةً، فقد كنت مدهوشاً طوال الوقت الذي مضى وهي تعدّ القهوة.

سألتهما فيما بعد، بماذا فكرا؟ فكانت أجابتهما مثلما حدث لي: فكرنا باللاشيء!

كيف نفكر باللاشيء ونحن في بيت عاهرة، هل احتفظنا بعذرية الأفكار إلى ما بعد لنجترها كفحول تحت أغطيتنا ونتأوه؟! يبدو كذلك .لقد حدث هذا لي شخصياً، لستُ أدري لماذا لم نثرثر لبعضنا بما حلمنا، كنّا نفعلها قبلاً، نتشارك الأحلام الجنسية عن النساء، فيما بعد عرفتُ أنّ الفحل لا يريد شركاء حتى في أحلامه.

دخلتْ كنادية لطفي، عقدتْ ساقاً على ساق، نظرتُ إلى فخذيها باطمئنان، كان وجهها جدياً، الوجه الجدي دليل على التفكير، لم أدرك وقتها أنّنا فتحنا جرحاً قديماً، خفّتْ نبرة صوتها، وتكلمتْ بلغة عربية بيضاء كلغة نشرات الأخبار. يبدو أنها متعلّمة!

تبدأ الذكريات بِـــــــ (كان ياما كان)... تكلمتْ عن أشياء تعود إلى زمن بعيد، لم نكن وقتها قد ولدنا، تكلمتْ عن فتاة، على ما يبدو أن ماضي المرأة: هو فتاة تحلم، ثم يأتي زمن المرأة لتدفع ديون أحلام الأنثى الصغيرة، أمّا الرجل، فماضيه ليس إلا رجولته، أمّا "ولدناته" فتنسى أمام أطول حقبة له، فثلاثة أرباع عمر الرجل صفتُهُ الرجولة.

المرأة كثيرة الحقب فمن طفلة، إلى فتاة، فصبية، فعزباء، فمتزوجة، فأم، فعاقر أو عانس، هذا الاستئناف يحكم عمر المرأة، لذلك كلامها ليس جديراً بالأخذ ككلام الرجل، صاحب الفاء الوحيدة في حياته.

أخذَنا حديثها، ولم يعد يعنينا السيف المغمود ولا نظيره المسلول، تناسينا الثمن، ويبدو أنّه لم يكن يعنيها أيضاً. هبطنا بهدوء من منزلها غير مكترثين أشاهدَنا أحدٌ أم لا!

****** ******

إنّه اليوم الثاني بعد امتحانات البكالوريا، ثلاثتنا ندرس في الفرع الأدبي، فرع الفاشلين، فلا حاجة للفلسفة أو التاريخ أو الأدب، فقد شبعنا منهم في ماضينا، نحن في زمن الاختصاص الذي ينتج نقوداً، كأنّه مشروع رأسمالي وبالضرورة ليس اشتراكياً، بالإضافة إلى ذلك، لسنا في زمن العمال والفلاحين الذين تقودهم طليعة ثورية قد ولّى زمنها.

إنّنا من الفئة التي لا تجيد لغة العصر المتمثلة بالرياضيات والفيزياء والكيمياء والعلوم، مع أنّ اللغة التي بنتْ عليها أوروبا حضارتها كانت الآداب والفلسفة، لكنّهم تناسوا أنّ فرعنا الأدبي هو من أعطى للفرع العلمي تلك السيادة.

محمود: أين سرحت ؟

- البكالوريا يا رجل، أمامنا حلان ليسا متوفّرين؛الوظيفة أو السفر.

يقولون الفلسفة أم العلوم، لكنّ أمّنا تزوجتْ البراغماتية، ومن يتزوج أمّنا يصبح عمّنا، والآداب أخلاق الشعوب لا الدول، ونحن نعيش في زمن الدول، لقد درسنا كتباً لا جدوى منها، قفا نبكِ من مستقبل...

****** ****** ******

كنّا نضحك عندما دخلنا مطعماً صاحبه زميل لنا، كان قد استلمه بعد أبيه، استقبلنا بودٍّ وقُبلٍ على الخدود و الأكتاف:

- فرسان البكالوريا بماذا تأمرون؟
- أنا: مسبّحة[1] البحر المتوسط.
- محمود: واجعلها نثر.
- داني: صحن فول.

أخرجتُ علبة الحمراء الطويلة، لم يحتج الشباب دعوة، كلّ منهم أخذ سيجارة، وعلتْ فوقنا سحابةُ (صنع في سوريا).

بانتظار المسبّحة والفول كانت عيوننا على الشارع، نراقب الصبايا العابرات.

********** ******

تجشأ داني، وفاحتْ رائحة البصل، ومعها تداعتْ ذكريات قديمة جداً، قطعتُ الطريق على داني وبعين تلسكوبية عادتْ في ضوء الماضي حوالي خمس عشرة سنة، جذبتُه من جانب محمود، وألصقته بالحائط، وهمستُ له:

الأخ لا يكذب على أخيه، أتعبتنا بالنقاش عن عضوك ذي القلفة لكنّني تذكرت أن عضوك ليس بأقلف!؟

دفعني داني، وانتحى إلى جانب محمود المستغرب من كلينا، وأخذ يضحك: الواقع بما يجب أن يكون ليس بما هو كائن، والقصة قصة مبدأ!

أزمجر وأصرخ: سأعريك هنا، وأجعلك فرجة كقرد السيرك، المبدأ الوحيد الذي أعرفه هو الحقيقة.

تدخّل محمود بيننا، وهو يظنّ أن خطباً ما قد حصل: يا شباب عيب عليكما، ليست الصداقة هكذا.

---

[1] المسبّحة: أكلة مصنوعة من الحمص

أجبتُ محمود بينما داني يضحك، وأنا مثله تقريباً:

هذا الكذّاب ليس له جلدة ولا من هم يحزنون، لقد تذكرتُ، كثيراً ما تنادرتْ أمّه وأمّي عليه وهما يشربان القهوة، لأن داني فقَدَ جلدته عندما كان عمره سنتين ونصف، فقد التهب عضوه العظيم، ولم يكن هناك من حلٍّ سوى تطهيره، لكنّ المخبول لم يستوعب ما حدث له، ولم يعد قادراً على التبول بعدها، ومضتْ ساعات طوال وأهله كالمجانين، فلم تنفع كل الوسائل لإقناع هذا التيس بالتبول، حتى فكّر الطبيب بتخديره، و سحب البول من مثانته عبر الإبرة، لكنّ أمه وأمي فكرتا أنّه لو شاهد عضوي ربما يقتنع أن ما حدث له ليس غريباً، فجلبوني وأروه عضوي الذي يشبه الخنجر دون غمده السخيف، وعندها بوّل المصون على السجادة، ولم يأكل أي كفّ على قفاه من أمه بل ضمّته إلى صدرها، أتمنى لو نال ما يستحق من الضرب!

ضحك محمود: الآن أنتما شقيقان بالأعضاء.

رد داني: شقيقان بالبول.

قلتُ: بل الكل للواحد والواحد للكل.

صمتنا بعدها، فهذه المقولة لا تصلح مع الأعضاء الذكورية.

****** *******

عندما تخلع المدينة ثيابها لا تعود إليها أبداً. طرطوس تتغير، تتوسع، تتضخم حتى كورنيشها قضم قضمة طويلة من شطّها، ومدّ لسانه محاولاً أن يتذوق جزيرة أرواد. أستغرب من نفسي، وأنا أتكلّم عن التغيير المكاني، فنادراً ما سمعتُ عن الذين عناهم الأمر من جيلينا. فقط كبار السن الذين جلسوا على الطاولات، يرمون نردهم لعلّهم يقبضون على حظٍ فاتهم، أو ينفثون دخانهم ضجراً من التقدم في العمر، من يكترثون لذلك.

تنقسم حياة الإنسان قسمين، الأول للحفظ، والثاني لتذكر ما حفظه، كأنّه بذلك يريد أن يثبت لنفسه أنّه كان موجوداً هنا.

أبي الذي تقاعد من عمله، كثيراً ما قال لي: الرجل باستقلاله ومن لم يفخر بشبابه ليس من فخر له، فأردّ: تلك مقولة قديمة لم تعد تنفع في عصرنا. كان الولد في زمنك يُعطى ماله، ويُزوج عندما يحتلم، أمّا في زمني، فقد مضى على احتلامي خمس عشرة سنة، لم أجد المال ولا..!؟

خرجتُ من شرودي عندما هبط عليّ داني ومحمود قائلَين: تأخرنا عليك.

- ماذا تشربان؟

- نرجيلة وشاي.

مضتْ سنوات الجامعة سريعاً، أنا درستُ الفلسفة، وداني درس التاريخ، ومحمود اختصر ... أنهى خدمته العسكرية الإلزامية، وبدأ عمله ببسطة ثياب، والآن لديه كشك يبيع الثياب فيه.

يقترب الجرسون يضع كؤوس الماء الساخن مع ظروف شاي ليبتون بالعلامة الصفراء، ويلحقه معلّم النرجيلة بلباسه العربي، ويجهز "النَفَسَين" ثم يناول كل من محمود وداني خرطوماً لكل منهما، بعد أن يوجه "المَبْسَم" نحو بطنه بحركة تستشعر منها مغزًى جنسياً، طالما أنّ الأمر لو وُجِّه للزبون، يحمل هذا المعنى!؟

لا شيء يبقى على معناه الحقيقي، فالألسنة تُغيّر، تُبدّل المعنى الاستعمالي إلى معنى يتجاوزه، وكثيراً ما يفقده دوره السابق، فقد كانت النرجيلة تهدف إلى إخفاء قرقعة معدة الأمير وإطلاقه لغازاته، أمّا الآن؛ فلها ما شاءت من التأويل ومن الدلالات.

يسحب محمود نفساً عميقاً، وينفخ الدخان في اتجاهي.

محمود: أعوذ بالله يا رجل، ماذا تقول؟

داني: لقد دبّ فيه الإيمان - يسخر داني- تخاف على رزقك !؟ لا تقلق، فالأرزاق مقسّمة، ولن تهرب إلى أيّ مكان!؟ لكنّك ستُسأل عن استخلافك فيها، لذلك عليك بالفاتورة، فأنا وباسم من المساكين، ولنا في مال الأغنياء حقّ.

كنتُ شارداً على ما يبدو، لم أعرف ما الذي جعل داني يتكلّم هكذا، لا ريب أنّها النرجيلة!؟

محمود: الفاتورة سأدفعها، أحتاجُ لرصيد من الحسنات يوازي سيئات التلصص!

قلتُ: جرسون، اجلبْ "طاولة الزهر[2]"، والآن سأفقعك هزيمة في "المغربية[3]" أخرجها من قفا رأسك.

بينما كان الجرسون يحضر لعبة الطاولة، كانت سماء طاولتنا تعبق بالدخان، كأنّ الرب سيتجلّى لنا هنا، وليس على طور سينين، سيناء،...، هل كان الفرق بين سينين وسيناء، ضرورات التصحيف أو اختلاف الأماكن ووحدة الأسماء!؟

داني هو دانيال، اسم يتجذر في الأسطورة، ومحمود هو أحمد، أحد غصون شجرة الاشتقاق، أمّا اسمي فيبدو غريباً ويدعو للسخرية، اسم فاعل من مصدر الابتسام، ماذا يعني سوى تهكمٍ حزينٍ؟!

يضع الجرسون "طاولة الزهر[2]"، فيما الصمت يجلس معنا، أفتحها بحركة عصبية، يتناول محمود حجارته البيضاء، أتمُ ترتيب حجارتي السوداء، وأترك أربعة أحجار بيدي على عدد أحرف اسمي، وأرمي نردي، فيأتي وجهه "يك[4]"، يرمي محمود، فيكون وجه النرد"جهار[5]"، فيبتسم ! يرن موبايل داني...(من كتر ما ناديتك وسع المدى)، رفضَ المكالمة، وقال: الذي يخسر، أحلّ محلّه.

---

[2]-لعبة من العاب طاولة الزهر

[3]أحد أسماء لعب طاولة الزهر

[4]- واحد.

[5]- أربعة.

دفع محمود الفاتورة وغادرنا، تركْنا داني في حيّ الحمرات، وتابعنا سيرنا ليتركني محمود بعدها.

***** ** ****

يحلم داني بالهجرة، فقد أودع أوراق طلب الهجرة في السفارة الكندية، مضى عليها سنة كاملة. أمّا أنا، فلا أعرف رغبة بالهجرة كداني، وليس لي تجذر كمحمود!

اشتريت جريدة، في الصفحة الأخيرة منها، خبر عن "أنجلينا جولي" و"براد بيت" وولد جديد يدخل حظيرة التبني، أنظر لشفتيها، وأتذكر فيلماً لها مع "أنطونيو بانديراس"، كيف احتمل أن تكون عارية بين أحضانه، لاريب أنّه خدر عضوه، تحتاج هذه الحياة لمخدر دائم.

أصعد درج البناء، بيتنا في الطابق الرابع، رائحة الطعام تعبق في البيت، أبي على الشرفة مع أبي سعيد، ألقي السلام، يسألني أبو سعيد عن أخبار المسابقات التي سنوظف بموجبها، أضحك:

من الواضح أنّهم لا يريدون زنادقة في مدارسنا، أليس كل من تفلسف تزندق!؟

يستغرب أبو سعيد من ردي، و يهمهم أبي!

أستأذن منهما، وأدخل غرفتي التي أشغلها مع أخي الذي يتم خدمته العسكرية، فأشمّ رائحة الحذاء العسكري، وكأنّني خلعته منذ لحظات بعد ساعة من الرياضة، لتقوية الحبال الصوتية وأنا أزمجر، أمة عربية واحدة –مجزأة إلى الأبد هذه الأمة!- إلى أن يضيع صوتي في ضجيج الأصوات المنادية بالوحدة على الإسفلت السائح من حرارة الشمس، في حين أن عميدنا قد وضع مظلّة لسيارته المرسيدس التي استلمها أخيراً بعد أن ترفّع لعميد بحكم الزمن، فمنذ فترة طويلة صارتْ الرتب يمنحها الزمن لا البطولات!

أضغط زرّ الـــ "power"، يصفر الكومبيوتر، أجلس، وأنتظر ريثما يدور محرك "الزيل[6]"، مرحباً، أهلاً، أخاطب نظام "الويندوز": يا سيد مكاوي[7] كل ما في هذا الكومبيوتر يتكلّم بلغة الثنائيات، ليس مهماً الإخراج الأخير الذي يكون باللغة العربية، تلك اللغة التي نظن أن أرضنا من المحيط إلى الخليج تتكلمها ؟!

ما هو المهم؟ لا أعرف !؟ أجري اتصالاً "بالإنترنت"، يفرقع صوت الـ"dialup" يتم التأكد من اسم المستخدم وكلمة السر، ثم تنفرج الشاشة عن صفحة كبير المحركات "Google"، أفتح "الهوت ميل"، لربما لمياء قد تركت رسالة ما.

أهمس لنفسي: ثلاث رسائل في علبة الوارد.

أشعل سيجارة بينما تتوضح نافذة "الإيميل" رويداً رويداً، آه، لو كان حقيقياً انتسابي لفرنسا كما هنا في حسابي على "الماسنجر"، عندما أنشأت حسابي للمرة الأولى، بحثت عن اسم بلدي

---

[6]- سيارة عسكرية لنقل الجنود وقطر مدفعية الميدان.

[7]- مغني مصري له أغنية تقول: الأرض بتتكلم عربي.

"Syria"، وضعته، لم تمض فترة طويلة حتى حُجبت خدمة "الماسنجر"، سواء أكانت وزارة الاتصال خلف ذلك أم الـ"USA" أم أي سلطة أخرى، لا يهم ذلك! ففي النهاية السلطة لمن يملك المخدّمات، لكن شكراً لعملية الحجب، فقد أصبحتُ فرنسياً دون هجرة يا داني!

أنشأتُ حسابي الثاني باسم "جاك" كما في "قصة مدينتين[8]" لأتفادى حجب خدمة "الماسنجر" في هذا العالم الافتراضي كما يقول مجمع اللغة العربية، أيها الفارس العظيم يوسف العظمة، هل عرفت الحال الذي آلت إليه ابنتك؟! ليلى في العراق "فايتة بالحيط[9]"، مكسور الوزن، عذراً يا جن عبقر، رسائل في صندوق الوارد، "مهمد موهامبو" يطلب مني أن أبعث له بمعلومات عن وضعي ورقم حسابي ليهرّب تلك الأموال التي ستأخذها الحكومة، أسف، لا أملك حساباً في البنك، ولا حساب حسنات وسيئات كمحمود، رسالة ثانية بعنوان (بلغ عني ولو آية)، أضع إشارة "صح " على الرسائل، وأضغط على كلمة "حذف"، تناديني أمي، أطفئ الكومبيوتر، ومن ثمّ أذهب لتناول الطعام.

***** ********

يرنّ موبايلي رنتين، بموسيقى "أبو علي" للمعلم زياد الرحباني، أفتح "الماسنجر"عن طريق موبايلي ببرنامج "ebuddy[10]"، كلمات لمياء تتابع مع نغمة تسجيل الدخول، تشعرني فيها بشوقها لي: حبيبي، عمري، روح لمياء، كنت في الحمام.

أقاطعُ دفق الرسائل التي وصلت وأنا أنتظر تسجيل الدخول، وأكتب: حبيبتي على "كي بورد" الموبايل، اشتقتُ لك، نعيماً، أين أنت؟

ترد: في غرفتي، لا أحد في البيت.

أكتب: حلو، أشتهيك، تصوريني الآن جانبك، أنزع ثيابك عنك و....

تتابع الكلمات متناوبة بيني وبينها، وعندما تحين لحظة الحسم، تتصل بي لأسمعها آهاتي، وتسمعني آهاتها.

تنحصر آهاتنا خلال دقيقة واحدة، حذراً من صرف رصيدنا من الوحدات في الموبايل، عيوننا على عداد الثواني، وقبل أن تكتمل الدقيقة تفصل لمياء الخط. أبقى وحيداً مع سائلي المنوي على محارم "ميموزا"، أشعل سيجارة، ويذبل عضوي، ليعود دودة صغيرة يحتضنها "كيلوتي" الأسود الذي به أقصيتُ أمي عن شراء ملابسي الداخلية، فقد أرادتْها بيضاء، وكأنّي مازلتُ ذلك الطفل الذي لديه حمامة، وليس غضنفراً كما قالت لمياء بعد أن بعثت لها صورة عضوي منتصباً كإنسان.

---

[8]- (قصة مدينتين (بالإنجليزية: A Tale of Two Cities) هي الرواية التاريخية الثانية للكاتب تشارلز ديكنز.

[9]- مصطلح عامي يعني: طائش وعلى غير هدى.

[10]- برنامج محادثة على الموبايل.

أعيد فتح "الماسنجر"، أتابع "الدردشة" مع لمياء، نتبادل كلمات مثل: جنون، معجزة...

أتكلّم عن اللقاء الفعلي، تراوغ كعادتها، ننهي المحادثة بخصام مفتعل، صرنا نعرف أبعاده.

ماذا سيكون شكل ابني في المستقبل؟! هل سيشبه موبايل "نوكيا"، وسيعلن وجوده على يد الطبيب الذي سيشق بطن لمياء، فأنا أريد العملية القيصرية، ليس لكي يصبح ابني قيصراً ويحرق روما / بيتي، بل لأنّني لا أريد له أنْ يوسع فرج أمّه، ويصبح عضوي كرايةٍ ترفرف في الهواء عندما يدخله، فليخرج من شق في بطنها هذا أفضل له، فالخروج من نفس الطريق الذي رُشِق فيه منذ البداية بسهم من الحيوانات المنوية سيكون سيئاً لنفسيته.

إن صراع الحيوانات المنوية، لكي يفوز أحدها بالبيضة، فيخصبها، يؤكّد مقولة البقاء للأقوى، وما تسابقها في مارثون النكاح إلا ليظفر أحدها بإكليل الغار اليوناني، ويندسّ في صومعة تلك البويضة وهذا هو قانونَ السافانا الإفريقي، قانون الغابة، وما خروجه من شقٍ في بطنها إلا قطيعة مع البدائية البشرية، ودخول في عصر الإنسان، لكنّ "قيصر" ليس إلاّ شواذٌ للقاعدة، آه، هناك الكثير غيره، لا يهم هذا ما قررته.

سيمسكه الطبيب من قدميه، وسيصدر لحن "نوكيا" المعتمد من قبل الشركة، وسيكون له أوضاع متعددة من الصامت إلى الهزاز، فالصائت. أشعر أن شركة "نوكيا" بكل أفرادها ضاجعوا لمياء، ونسبوا هذا الولد لي، ستسعى لمياء جاهدة لتأمين حفاظاته من أحدث قوالب "النوكيا"، وستضعه في بيت جلدي، وتعلّق به أحجاراً كريمة، بين فترة وأخرى سأعيد برمجته من جديد بــــــ"ضبط المصنع"، ولا تعنيني التحذيرات التي تقول بأنّ الأسماء والرسائل ستضيع، هكذا سأحافظ عليه نقياً، تضحكني فكرة النقاء، هل أشبه الآن أستاذي، المدرّس المنتسب لحزب البعث العربي الاشتراكي الذي مازال يعتقد بأنّ الكلام والنقد محله تحت الشعار، وليس في مكان آخر!؟ إعادة الضبط الحقيقية تكون خارج البرمجة الداخلية للموبايل، حيث يكون التغيرَ نفسه لا ابنه.

لا أعرف كيف يقيم التوازن بين كتبه العتيقة التي أُعدّتْ لزمن البخاري وزمننا الليزيري هذا!؟ الأحزاب تكون سماوية في طورها السلبي، وتصبح أرضيّة براغماتية عندما تستلم السلطة.

نحن محكومون بالحلم، الحلم هو جوهر التوازن، وأنا أحلم بأن أكون سمكة، كيف سيكون شكل الحزب الذي تقوده سمكة تقضي عمرها في الحذر من شصّ، وعندما يهتز قليلاً تفتح فمها و...؟!

أطفئ سيجارتي في رحم المحارم الورقية، حيث حيواناتي المنوية كالشراغف.[11]

********          *****

[11]- صغار الضفادع.

داني وحيد والديه، مع أختين؛ تكبره واحدة، وتصغره أخرى، لقد تزوجتا، أخته الكبيرة جعلته خالًا منذ ثلاث سنوات، والصغيرة يبدو أنّ لديها انتفاخاً في بطنها كان يُفترض أن يكون منّي، لكن كنّا كبيرين كفاية لنتفادى معمعة الزواج من دين مختلف.

عندما قالتْ لي إنّ هناك عريساً محتملاً، لا أعرف! لربما شعرتُ بالارتياح، وحتى هي لم يبدُ عليها الانزعاج، صمتنا لبعض الوقت، دفعتُ ثمن فنجاني قهوةٍ، وغادرنا الطاولة التي اعتدنا الجلوس عليها، وداعًا للقبل الخاطفة واللمسات العابرة.

داني ينتظر مسابقة التوظيف مثلي، يقضي جلّ وقته في تعلّم اللغة الإنكليزية، يبحث عن أجانب عبر "الماسنجر"، ويجري معهم محادثة ليتقن اللغة أكثر. أحياناً يسأل بماذا أفكر، كلما مررنا من الميناء حيث يبيعون السمك، أجيب:

ببساطة أن أكون صياد سمك، ليس كمسيحك! أشعر أن لي زعنفة لا قدمين، سأعكس الأسطورة، سأبحث عن شيخ يبحث عن انتعاظٍ لشبابه، سأعطيه صوتي وقدميّ وعضوي على أن يحضر لي تعويذة تمنحني زعنفة بدلًا من تلك الساقين، سأعكس نظرية داروين، أليس الإنسان هو رأس الهرم التطوري؟! لقد حان وقت الهبوط، وسأختار الرتبة بمحض إرادتي.
- لكنك تحتاج لأن تغرم بحورية حتى تكتمل الأسطورة.
- ليس من ضرر أن أتصرّف بالقصة كما أرغب، وأنت تعرف، لقد بدّل المنتصر بالتاريخ كما يريد، وكمتلقٍ يحق لي عندما أقصّ على نفسي الحكاية أن أقدّم وأؤخر وأحذف.

****** *********

قليلاً ما يذهب داني إلى الكنيسة، ولربما السبب يكمن في أنه لم يستطع أن يفهم معنى تضحية المسيح، فإنْ كان عليه أنْ يفتدي البشرية بهذه التضحية، فلماذا أجّلها إلى ما بعد الموت لنحصل على النتائج؟! ما هي الصفقة التي عقدها مع الشيطان عندما قال له: "لا تجرب الرب إلهك!؟[12]" الأمر واضح، فقد قال له: جرّب الإنسان، فهو ساحة لمعركتنا.

الحرارة مرتفعة، لا تفعل تلك المروحة التي تئنّ شيئًا كسارق ليس على يساره من مسيحٍ. الساعة الثانية صباحًا، ربما لدى رغدة "كونديشن"، وتتمتع الآن بالنوم هانئة في أحضان مَنْ سيضع لها تحت وسادتها ما يعادل أول راتب لي-إنْ توظفت- قبل الحسومات.

في دولة غربية، نسيت اسمها، هناك صندوق تقاعد للمومسات، هل تخبّئ رغدة قرشها الأسود ليومها الأبيض!؟

تحسّس داني صدره، ثمّ أطفأ السيجارة التي مجّ عقبها حتى النهاية بجانب حرف الشباك من الخارج والذي يراقبه من الشارع كلما غادر صباحًا. يرفع رأسه، وينظر ليجد تلك البقعة السوداء من أثر انطفاء السجائر، تتوسع رويدًا رويدًا في الدهان الأبيض.

---

12 - جملة من الأنجيل

يقول داني: عندما أُصابُ بالسرطان سأحتاج إلى معجزةٍ، وقدّيسين مختصين بتلك المعجزات التي تترك دومًا إشارة استفهام عليها، كمشلول قام، ومشى، وترك كرسيه المدولب -الذي تبرعت به إحدى الجمعيات الخيرية- لمشلول لم ينفعه اللقاح الذي تعدّه الأمم المتحدة، لكنّي لم أر رجلاً كـــ"جون سيلفر" في جزيرة الكنز - قد نمتْ ساقه كذنب ضبٍ بعدما قُطعتْ بمعجزةٍ- إلا في فيلم "xmen"، حتماً إنّ أصحاب الأرجل المقطوعة لا تنفع معهم معجزات تترك علامات استفهام، ها نحن ذا على دروب كنزنا....

يُغلق الضوء، وفي الظلمة يتمتم: ربنا لتكن مشيئتك كما في السماء...، ونجنا من الشرير.

********* *****

يرنّ منبه موبايله بأغنية، (عايشة وحدا بلاك)، وتتكرر الأغنية حتى يملّ النائم قبل المستيقظ، فتدخل أمّه: داني ما هذه العادة، كل يوم نفس القصة!

يستيقظ داني، يسرع في ارتداء ملابسه، لا يعير كلام أمّه عن الفطور أدنى اهتمام، ويخرج مسرعًا، ليقطع شارع الثورة، يركب "السرفيس"، يهمس لنفسه: لقد تأخرتُ.

عندما وصل إلى عمله، قال له المعلم سركيس ومن دون مقدمات: امسكْ ورق الحفّ، وابدأ بهذا الباب الذي على يمينك.

تنبّه إلى أنّه لم يُحضر ثياباً باليةً للعمل، لكنّه بدأ بالحفّ، ومن ثمّ تصاعد الغبار... هذا الغبار يشبه نظيره المتصاعد من كتب التاريخ عندما ينفّضها التأويل، وعلم التاريخ المقارن. يتأمل الباب الذي من خشب "السوّاد[13]" ويسأل نفسه: إذاً، مما يتألف باب العالم الآخر! هل هو فقط هذه الحفرة أم تلك الغرفة التي يمدد فيها الميت انتظاراً لقيامته؟ متى تحدث القيامة؟ ليس في اليوم الثالث، إذاً متى!؟

يؤنبه صوت المعلم سركيس: حفْ من الأعلى إلى الأسفل، وليس في مكان واحد فقط .يا رجل، الحفّ لا يحتاج إلى جامعة!

يناديه المعلم سركيس لتناول كأس من الشاي، يشعل سيجارة، وينفخ دخانها، فتلعب به الريح الحارّة.اختصر سركيس الطريق، فهو متزوج، وأكبر منه سناً، يزيده بعامين على أقل تقدير، ويملك مالاً في جيبه من عرق جبينه.
مسح بقماشة قميصه جبهته المتعرّقة، فتركتْ بقعاً بنيةً عليه، نظر سركيس إلى القميص: إنّه لون الحياة.

مضى الوقت بطيئاً، تبدلتْ الأبواب.

[13] - نوع من الخشب يستخدم في النجارة

اليوم كان الحفّ بالورق الخشن، غداً بالناعم، وبعده بالأنعم، على عكس الحياة التي تبدأ بالأنعم وصولاً إلى الأخشن... يقاطعه سركيس: غداً، تعال باكراً، يا دلوع أمّك.

يعود للبيت، يأكل كبغلٍ، يستحم، ويغرق في النوم.

*****          *********

.....

.............

- إذا سافرتُ فلدي مهنةٌ. ماذا تفعل تلك الساعات التدريسية التي تُوزّع علينا خلال الفصل الدراسي؟! أيكمن دورها بأن نشتري بها لقب أستاذ -يا سيدي- ليس من أستاذ وليس من بطيخ في تلك الساعات! إنها مجرد هراء، أربع سنوات مرّت منذ تخرجنا من تلك الجامعات، وكل عام يمرّ، أشعر به أنّي أزدادُ تفاهةً.
ودّعني، ومضى باتجاه الكنيسة، سينتظرها حتى تخرج من الصلاة، تدفق المصلون -كانوا قلّة- من باب الكنيسة، كانت هي آخر من خرج .نظر إليها، وفكّر كيف سيضاجع أنثى تصوم أكثر من مئتي يومٍ في السنة، بالإضافة إلى أيام الصوم المفروضة!؟

مدّ يده وسلّم عليها: كيفك؟

- منيحة.

- أأستطيع أن أدعوك إلى فنجان قهوة؟

فكرتْ قليلاً، نظرت إلى موبايلها، وأجرتْ اتصالاً: ماما، أنا ذاهبة مع داني إلى قهوة المنشية"ok "... ماما لن أتأخر.

أوقفَ سيارة أجرة وضعتهما أمام الباب. دخلا، اختارا طاولة هادئة، في مكان ما من القهوة كان صوت فيروز ينداح، لكنّه يغيب أحياناً في الضجة المنبعثة من الزبائن والشارع، جلسا لنصف ساعة، لم يتفوها بالكثير من الكلمات، فقد كان يشعر بعد كل صلاة، أن هذه الفتاة تصبح سماوية أكثر، يهمس في نفسه: إنّني أنافس عريساً سماوياً.

يستأذنها قبل أن تعلن تأخر الوقت، يعرض عليها أن يقلّها إلى البيت، فتصمتْ، يوقف سيارة أجرة، ويركبا، يجري مكالمةً: ألو باسم، أين أنت؟ حسناً، عشر دقائق، وسأكون عندك،"باي".

تتوقف السيارة، تنزل ماريا، يكلّم داني السائق: المشروع السادس لو سمحتْ.

يجلد شهر آب الناس بشمسه التي تبخّر حتى أحلام البرودة في القبور المظللة بالسنديان، يقرع على الباب، تفتح أمّ باسم، يدخل داني.

- كيفك خالة؟
- كيفك أستأذ؟

- أهلين، كيف الأهل، تمام، تعال واجلس قليلاً.

ينفخ باسم متبرماً، يجلس داني مع أبي باسم في الصالون الذي تحرك الهواء فيه مروحة في السقف، يسأل داني بعض الأسئلة الاعتيادية، يجيب داني بضبابية، يوقف باسم المحادثة، ويدعو داني لغرفته، يستأذن، يعود أبو باسم لمتابعة قناة المنار التي تعرض "سكيتش" عن المقاومة وهي تدكّ تحصينات العدو.

- يلعن ربّها يا رجل، أنا عاشق لراهبة، ألا يوجد واحدة بجرأة حواء؟ يا أخي، سأقطع علاقتي بها.

يضع باسم CD "كيفك أنت" لفيروز "تلحيم[14]" زياد...( كيفك أنت ملّا أنت): لماذا لم تكلّمها بالفصحى؟!

******** *****

لم يكن وضع محمود الأُسري جيداً، لم يستطع أن يغفر لأبيه زواجه بعد وفاة أمّه، رغم أنّه كان صغيراً جداً ليتذكرها كهوية محددة، لكنّه كثيراً ما تكلّم عن رائحتها، كان يقول: رائحة الأم كالبصمة مهما كبرت لن تتغير.

للحقيقة؛ أعرف جيداً زوجة أبيه، كانت عطوفة عليه، ومحمود يشهد بذلك، لم يفسّر أو يسعَ لحل هذا الموضوع أبداً، كان يتجنب الحديث عنه. تباعدنا قليلاً عن بعضنا البعض خلال دراستي الجامعية، أنا وداني ، لكن سرعان ما عدنا -كما كنّا- "الفرسان الثلاثة"، بالتأكيد لن يكون هناك من رابع، فالصداقة الحقيقة هي نتاج علاقات الطفولة، وليس صنيعة الزمن، فالصديق صديق الطفولة، وما عدا ذلك سيكون صديق مصالح وتوافقات، ومن لم يَبُل أمامك مُطلقاً بوله إلى أبعد مسافة لينافسك، ليس صديقاً.

استطاع محمود أن يؤسس وجوداً، استأجر غرفة في منطقة الفقاسة كانتْ ملجأً لنا، وغرفةً من بيت المستقبل لمحمود.

فِكرُهُ عمليّ، لم يكن يحبذ نقاشاتنا العقيمة، وفرح كثيراً عندما علم أن داني يعمل مع سركيس في ورشة الدهان. كنتُ عندما أريد أن أغيظ داني بشيء ما، أهمس له: إنه الخشب، أنت لم تبتعد، إلى الخشبة مصيرك كمسيحك، وقبل أن يلتفتَ إليّ، أسبقه، وأقاطعه: أعرف أعرف، ما الذي أعرفه!؟

---

[14]- المقصود بها : تلحين.

الحقيقة لم يكن داني على خطأ، أشعر أنني رجل من كلام، لا أجد نفسي إلّا في تلك النقاشات والأفكار التي يحتملني داني عندما أسردها عليه، سألته مرة:

هل حقاً تتابعني في كل ما أقول ؟!
لم يمهل محمود داني ليجيب، بل بادر وقال:

أذن من طين وأذن من عجين! والله يا "أبو الدن" لستَ بقليل.
صمتَ داني وأفرغ البقية الموجودة من البيرة في جوفه.

(الزبون على حق) حكمة محمود، كانتْ تظهر بكل تصرفاته وأنا أراقبه، يملك صبراً لا ينتهي، خاصة مع النساء، يترك الزبونة تسترسل في رؤية وتقليب البضاعة وهو يرمي بنفس الوقت كلمات الاستحسان، إنّه كصياد السمك، يرسل خيطه حتى تتعب السمكة من المقاومة، وعندها يشدّها بقوة، كما يقال، ابن سوق، يعرف من أين تؤكل الكتف، يقترب مني، يستلّ سيجارة من علبتي، ويتكلم، وبين شفتيه السيجارة المشتعلة:

- يا رجل حيّرتنا! ألم تجد رقبة لتأكلها؟!

***** *******

استفاق محمود على الدنيا وهو يناديها بأمّي، لم يكن يستوعب لماذا يناديها أخوه الأكبر بخالتي، لفترة شعر أنّ نضالاً ليس بأخيه، يسأل نفسه كيف تواطأ الجميع عليه ولم يحدّثوه بأنّها زوجة أبيه؟!... لكنه تواطأ معهم أيضاً.

يقول: الآن، لا يهم، لا أريد أن أبرر أو أحلل .هناك جرح حدث، وهو في صميم وجودي، فتغييره، يعني أن أحذف سنوات من عمري، سنوات غائمة لا أملك ذاكرة عنها، لكنّ فيها عاطفة كبيرة، إنْ تركتها تسقط لأتصالح مع أبي، هذا الأمر سيفرغ وجودي. إنّ حنقي وغضبي سبب وجودي، أنا جيد في التعامل مع زوجة أبي ومع أخوتي، لكن عليّ أن أغضب من أحد، ليكن أبي، فالموتى لا يؤثر بهم الغضب.

ألكز زجاجة محمود: اشربْ، سنتبادل الأدوار، سنصبح آباءَ، وسنفهم، وفي ذلك الوقت سيأتي أولادنا ليضعونا في خانة الاتهام.

***** ******

بين زبونة وأخرى يقرأ محمود، يخبئ كتابه كأنّه بضاعة مهربة، كنتُ أحياناً أتعجب من معلومات تخصصيّة يقولها، وكنتُ أعتبر ذلك محض صدفة رتّبها مصدر ما، كأخبار التلفاز أو الجريدة، أو أربط ذلك بثقافة كوّنها عندما كان طالباً، فلقد نشر عدة قصائد بصفحات تُعنى بأدب الشباب، فيما بعد اختفى هذا الميل لديه، وتناسيناه نحن، فلم نعد نسأل عنه، وهو وارب بجدارة ليبعدنا عن ذلك، لم يكن تعليله كافياً بالنسبة إليّ عندما اكتشفتُ أنّه يقرأ، لكن لم أهتم!؟

- لقد خنتُ نفسي، كنت أريد أن أدرس الأدب الإنكليزي، أنت تعتبر الآن توجهي إلى العمل قراراً براغماتياً صحيحاً...

تركته يسرد كما يشاء. لم أقاطعه. منذ زمن، لم ألتقِ بمحمود الذي كنتُ أعرفه عندما كنّا طلاباً.

- ستقول إني أوديب بنسخة حديثة، فليكن. أقرأ لأني أريد أن أكتب الرواية، لا لأقتل أباً. وقبل أنْ ألفظ: والشعر!؟

- الشعر حلم خنته أيضاً، لن يغفر لي خيانتي، الرواية لم تكن ضمن أحلامي في ذلك الزمن، لذلك وقع الخيار عليها، وبصراحة لست نادماً، لا أشعر بحنين لكتابة الشعر، تستهويني تلك الكتب الممتلئة بالكلمات، صفحة بقلب أسود وإطار أبيض، أليست هذه هي الحياة!؟

أشعلتُ سيجارة لي وله.

- بما أنّك عرفت الآن، فَلِداني الحق بأن يعرف. صمتُّ ولم أجب.

أمّا داني، فقد ضمّه وقال: هل ستترك باسم يسلّمني كما فعل يهوذا!؟

- إن سمحتُ بذلك، ستُحَلّ مشكلتك مع حبيبتك السماوية.
- ما موضوع الرواية يا محمود؟
- إنّني أكتب، لا أعرف عندما تنتهي، ستخلق موضوعها، وسيكون لكما الشرف بأنْ تفضا ختم الحبر.

***** *******

لقد سمعتُه، لم أرَه، لكن ما من أحد غيره كان في الصالون، لذلك حسمتُ أنّه هو، لقد ضرط! أتعرف ماذا يعني أن يضرط أبوك؟! إنّه اكتشاف يعادل اكتشاف غاليليو لدوران الأرض حول الشمس، إنه عود الثقاب الذي اشتعل في حقل التقديس اليابس، ولم ينطفئ إلى الآن.

كنتُ في السادسة عشر، وقتها لم تكن شفرة الحلاقة قد حصدت شعر ذقني اللبني، كل جرأة العالم أتتني، ذهبتُ للحلاق وقلتُ له: احلقْ.

وعندما عدّتُ للبيت، لم أتصور حقيقةً ردّة فعل أمي وأبي! ابتسمتْ أمي ابتسامة كبيرة تعادل نجاحي بـــ"البروفيه"، أمّا أبي فقد وضع يده على كتفي وقال: لقد حلق ذقنه يا أم داني.

- باسم هل تضرط الآلهة ؟

وجّه سؤاله نحوي، كنا جالسَين معًا على الصخور التي وُضِعتْ لتكسر الموج، الموج الذي صار يموت قبل أوانه، يصطدم، لكن لا شطّ يتشكل، يبدو أنّ نهاية الموجة أو جثتها حبة رمل، فالشاطئ مقبرة جميلة. ليت مقابر البشر كالشواطئ!؟

- ما بك!؟

تنبهتُ أنني لم أعرْ سؤال داني أي اهتمام: نعم تضرط الآلهة وما "big bang" لحظة تشكل الكون إلاّ ضرطة كبيرة، وهذا اكتشاف يحسب لي، وإذا نقلته فعنعنه عنيّ.

- أتعرف؟ أشعر أنّ الهوية ما هي إلّا عنعنة ذاتية....

- لا أعتقد أنّها بهذه النقاوة، بالأحرى هي أكثر اتساخاً من مستنقع، وإذا وُفّقتَ، تظهر على سطح مستنقعك زهرةُ اللوتس، عندها تستطيع أنّ تقول هذه هويتي، أمّا ماعدا ذلك، فهو مزيج من فسيفساء من عنعنة الآخرين.

- كان أبي يريدني قاضياً أو محامياً، وكثيراً ما أخذني معه للمحكمة، يهمس لي هذا القاضي فلان، وذاك المحامي علّان، كان يزرع بي الرغبة، ليرى اسمي على لوحة خشبية أوعلى لافتة في شارع ما. كنتُ سعيداً بحلمه، فلم يكن لي أحلام، فمشكلة الأهل تكمن في أنّهم يزرعون فينا أحلامهم، ولا يبحثون عن الذي قُدّر لنا من أحلام، أنا لا أحلام لدي، أيعتبر هذا خطأً في الجبلة الأساسية لقدري!؟ لا يهم، فقد كانتْ تلك الضرطة اللحظة التي استيقظتُ فيها من أحلام أبي، للحقيقة؛ أنا فرح بهذا الاستيقاظ، أعيش أيامي، مضتْ سنوات وأعترف – الآن- إنني ألعن الساعة التي سمعتُ فيها ضرطة أبي، إنْ لم يكن لك حلم، فلتقبل بأحلام غيرك عنك...

ندخن، ونشرب البيرة، والموج يبصق أنفاسه الأخيرة علينا، داني يتكلم، وأشم رغم رائحة البحر القوية ورائحة الخشب المنبعثة من داني. أجرب فضيلة الاستماع، هذه الفضيلة الدبلوماسية، حيث تضيع كلمات كثيرة في صوت الموج وقلة انتباهي، لا يهم... لأن داني يبوح، يفرغ تلك الشحنات داخله، يعتبرني كسلك التأريض، فتنتهي شحنة الصاعقة في الأرض دون أيّ أذى.

أنا أشبه النواس، إنْ توقف مات، وإنْ تحرك لا أحد ينتبه له، ينتبهون لعقارب الساعة ليعرفوا كم الوقت، وعندما تتوقف العقارب، يلحظونني.

- سأكون رقماً ببساطة... ما المانع؟! أكره الرجال الذين يذكرهم التاريخ، وأكره رغبتهم الهائلة في الخلود .أكأنّ علينا تقمّص حيواتهم، وجعلها مثالاً لنا، هم آباء آخرون لك، يحلمون عنك أيضاً، يشكلون لك ماضيك وحاضرك ومستقبلك، ويمنعون عنك الحياة .أنا لا أريد أن يعنعن عني أحد...

أقاطع كلام داني الأخير الذي سمعته بوضوح:

- أفهم الآن، لماذا ماريا هي الأنثى المناسبة لك!؟ هي الأخرى تريد أن تكون رقماً، ظلاً يتماهى مع ظلال الكنيسة الصامتة الدافئة في كنف الراعي وأحلامه. أصفعُ داني على ظهره وأكملُ: لقد نالتْ منك البيرة.

أتجشأ...

***** ***** *****

الساعة الثانية ليلاً، لمياء تريد النوم، نوقف "الدردشة"، متمدداً في سريري أنظر لسقف الغرفة، كلّ ما يعلوك فهو سماء، سقف الغرفة سماء، الفضاء لا يعلوني، إنّه يحيط بي، فهو ليس سماء، الفضاء مدى تطير فيه ومن ثمّ يسمح لك بحرية امتلاك الجهات، في حين أنّ السماء سلطة، والسلطة لا يمكن أن تطير فيها، بل عليك اغتصابها، لكن هل أبحث عن سلطة أم حرية؟ وكيف تتحرر دون سلطة! لا ريب أنّ الغبار قادر على هذا الخيار! مَن منّا له القدرة على منعه من التراكم؟! إنّه أثر الفناء...

محمود يكتب رواية، يملك أحلامه، يسعى إليها بجدٍ غريب، كلّ هذا بسبب أبيه، قالها: ليس أودبياً، لكنه نسخة تشبّهه، مهما يكن، الحياة لا تتطور إلّا بقتل الأب، بأكل الذاكرة القديمة، عبر ذاكرة جديدة، فالأضحية ببساطة رمز للأب، للإله، وبنفس الوقت تقرّب له... تشبّهٌ به.

على الأب أن يكون صارماً، قاسياً، معذباً، وعلى الابن أن يجد سبباً للكره، وللاستبدال. يريد داني الطريق السهل عندما يفعل الزمن فعلته، ويهرم الأب ومن ثم يموت، فيرثه، هذا هو الطريق الأقل كلفة. محمود اتبع سبباً، أسواء كان خلبياً أم حقيقياً، لكنّه ينفخ في أشرعته، وأنتَ هل تبحث عن طريق ثالث، عن حلّ وسط!؟

يرتفع الموج، يغرق سريري رويداً رويداُ، أحس بالماء يلامس قدمي، حراشفي تنبت بسرعة، وذيلي يتشكل، أنتفض، وأقفز من فوق السرير الذي يغوص في ظلمة البحر، أسبح بسلاسة تشبه أحلام الطيران التي كنتُ أحلمها في طفولتي، والتي يقولون إنّ الروح فيها تغادر الجسد، وتتجول، ومَن يحدث لهم ذلك حياتهم قصيرة، لأنّ أرواحهم غير مستقرة في أجسادهم.

تعجبني فكرة الموت المبكر. في الضوء المتسرب من سطح الماء، ألمح لمياء، شبه غارقة أو عائمة، لست أدري، أضرب بزعنفتي الماء، فأندفع باتجاهها بسرعة، وكلّما اقتربتُ منها، تتوضحُ معالمها، ووجهها يصبح وجه رغدة. أستيقظ والعرق قد بللني. أشعر بالتصاق عضوي على شعيرات عانتي، اللعنة مازلت أحتلم، ما هذا النضوج الذي لا ينتهي!؟

**أطلنطس**

.....

.......

ديلمون، الجنّة، أطلنطس القارّة التي غرقتْ بسبب تجبّر أهلها، كل ما سبق، هو يوتوبيا تنهيها الخطيئة؛ ليقوم على خرابها الواقع. في البدء كانت الخطيئة! إذن، كيف نبني ما يُفترَض بأنّه صحيح على مقدمة خاطئة!؟ فالمقدمات الخاطئة تعطي نتائج خاطئةً، والمصيبة، أنّ ما اعتُبِر خطيئةً كان فعلاً لاحقاً بأثرٍ رجعي، أو أكثر من ذلك كان فعلا متعدياً، مستقبلياً. إذاً هناك بداية صحيحة تختفي وراء الخطيئة! لكن هذه البداية الصحيحة لم يكن من أهدافها إعمار الكون!؟ فلنسلم جدلاً، ونقرّ بأن الخطيئة هي مبدأ الكون، وعلى ما تقدم نبني حياتنا؛ إذاً ما الخطيئة التي يجب أن نرتكبها ليعمر وجودنا!؟

أخرجَ محمود كتبه من تحت السرير، وبدأ بترتيبها. لقد اشترى ثلاثة رفوفٍ لغرفته. كنّا قد ثبتناها معًا. الآن، أصبح لديه مكتبة، قال:

خطيئتي ستكون الكتابة، سأبيع روحي للتخييل، سأخلق شخصيات، سأجمع ترابها، ولن أسمح للأرض بأن تستعيدها مني، سأنفخ فيها من روحي؛ حتى تصعد من الصفحات، وتقف أمام الخالق، وكتابها في يمينها أو يسارها ليس من ورق، والسؤال بما أنني ابتكرت تلك الشخصيات، هل سأحملُ ما ارتكبتْ من أوزار أو سأُجزى على ما صنعتْ من خير!؟

بينما كان محمود يسرد- وقد قارب على الانتهاء من ترتيب كتبه- كنت أقارن بين غرفته وغرفتي، كلانا له الحرية، لكن هل حريتي حقيقية في غرفتي التي أغلقها على نفسي بالمفتاح؟ وإنْ كنتُ أفعل ذلك دون مبالاة أو اهتمام بمن في البيت ؟! بمكانٍ ما لا أفعل ذلك بالنقاوة التي يفعلها! يخرجني من أفكاري....

أتعرف كم ألهم "روبنسون كروزو" من رجال؟ ألا يستحق أن يقوم من عالمه المحدود ببعدي الطول والعرض ليكتسب بعداً ثالثاً، ارتفاعاً؟ ألا يستحق أن يرمي بجسد الحبر؟ هذا ما أرغبه لشخصياتي، أن أراها يوم النشور.

وكأنّه قرأ ما لمع بعيني، عندما قلتُ له:

ليس الموضوع مدار إثبات أو نفي، هذا سرد بشري، يملأ ثقوب سؤالٍ يبدو أنّه أزلي؛ من أين وإلى أين! هذه "الأين" تقتلنا! لِمَ لا ينصبّ الاهتمام على الطريق؟ وما الجدوى من نقطة البداية والنهاية أمام الخط الواصل بينهما؟! يكاد يكون الحال كربط حبل على رقبة الإنسان تتجاذبه بداية ونهاية، والنتيجة ستكون قطعَ رأس الإنسان ليحل محله عقدة في الحبل، هذه العقدة بدايتها الخطيئة ونهايتها الحساب، الحساب الذي ستخلد به خلوداً غير معينٍ، لأنه مجرد استيهامات، بدايةٌ تزاد على نهاية، صفر يزاد على صفر، والنتيجة صفر، عدم. أحسدُ الشخصيات في الروايات بعيداً عن رغبتك في بعثها يوم القيامة، هي تُعنى بالطريق، ولا تكترث لحماقات الكاتب عن البداية والنهاية، تلعب دورها كاملاً، فلا يهمها ترقيم الصفحة الأولى بالرقم واحد، ولا الكلمة الأخيرة في الرواية: **تمت**.

أنهى محمود إعداد المتة، وضعها على الطاولة، ثلاثة كؤوس، وإبريق من الألمنيوم، يُقرع الباب، يدخل داني.

***** ***** *****

ننهي سهرتنا عند محمود، السيارات قليلة في الشارع، نمشي أنا وداني بهدوء، كأنّ أحاديثنا في غرفة محمود قد استنفدت قدرتنا على الكلام، نفترق ويتوجّه كل واحد منّا إلى بيته. كلانا يحمل نسخة غير أصلية لمفتاح بيته أو بالأحرى بيت أهله، داني يرى بأنّه لا جدوى من محاولة الخروج من الأنساق الثابتة والقارة، لذلك يحاول الهجرة، وعندما ذكّرته بكلامه لي يوم ذهابنا إلى البحر، أجاب:

وكأنّك تطلب منّي خطة عمل !يا رجل نحن جماعة ردود أفعال، لو كنّا أصحاب فعل لما كان هذا الكلام ليخرج من أفواهنا، نحن ضمن النسق، والأسوأ أننا منفصلون عنه، دون القدرة على الخروج منه. الخطيئة الأساسية مكنتنا من الخروج من الجنّة، أمّا الآن، فما أسوأ أن تكون بلا خطيئة! وقياساً على الخطيئة الأساسية، هل محمود مقتنع حقاً بخطيئته، فانتحلها!؟ لا أعتقد، فالخطيئة كالنقود رغم أننا نتداولها وتقوم حياتنا عليها، إلّا أننا نحاول استبدالها بالأشياء الحقيقة من ذهب وعقارات، وهل من الضرورة أن نجزم؟! أن نتيقن!؟ الحل يكمن بأن نكون شخصيات روائية، لكن مَن سيكتب مَن؟ مَن سيكتبني!؟

****

انتبهت إلى أنني قد وصلتُ أسفل البناء الذي أسكن فيه. جُلّ الشقق دخلتْ في النوم، أصعد الدرج مستعيناً بضوءٍ جُهّز به الموبايل، هذا الجهاز رائع في تقديم الخدمات، زمن "الملتيميديا"، ليس من خط بداية أو نهاية فيه، إنّه شبكة عنكبوتية، فأثر الفراشة لن يُلتقط دون شبكة العنكبوت.

أُدخل المفتاح بهدوء، أديره، طقة واحدة، أتسرب إلى الداخل بخفة لصٍ، يسعل أبي ليعلمني أنني متأخر، رغم معرفته أنّ هذه السعلة فقدت قدرتها على تحريك مجرد الشعور بالأسف، لكنّه يفعلها كأب لديه واجب تجاه ابنه. أبتسمُ، ماذا لو تغيّر الدور وعاد أبي متأخراً وأنا سعلتُ! سيصبح الأمر كفيلم "أبي فوق الشجرة" لـ"عبد الحليم حافظ"، أغلق باب غرفتي، سريري رتّبته أمي، يشعرني تنظيفها لغرفتي أنني مخترق، بينما تشعر أنّها تمارس أمومتها. أسقط عني ثيابي، وأغرق في النوم.

***** ***** *****

أرى نفسي في أرض مزروعة بأشجار الزيتون، أطلّ على جمع غفير من الناس، ثيابهم ليست غريبة، فهي مما نلبسه هذه الأيام، لكن لا يبدو عليهم أنّهم مكترثون بالزيتون، بل يشخصون بأبصارهم نحوي، فيما أنا أجلس على مقعد مما نجده في الحدائق العامة، لونه زيتي، لم يكن

مريحًا ، خاصةً لمن هم مثلي، لا ينفع جسدهم إلّا للحساء، فلا لحم فيه. أسمع صوتي يتخللهم، أقف مع جموع الناس، وأنصت لما أتفوّه به:

مصير الإنسان الحتمي أن يتحوّل لعامل في خلية نحل أو نمل، حيث يتخلص من إدراكه للتنظيم والنسق الذي يندرج فيه، فيعمل بإخلاص منقطع النظير، كما تفعل أيّة نحلة عاملة أو نملة، أمّا شؤون الحكم فليستْ من شأنه، حتى أنّه لا يجب أن يسمع بما يحدث فوقه سواء في الطوابق العليا للخلية أم في السماء، وهذه هي الجنة التي لا تنالها الخطيئة، ستسألون ما الخطيئة!؟ الخطيئة هي الإحساس بالنقصان. انظروا للحصان، هو متأقلم مع بيئته، نعم، إنْ تغيّرتْ شروط البيئة التي يعيش فيها قد ينقرض، لكنّه لا يعي ذلك، فعدم وعيه هو كماله، فالكمال هو التأقلم التام مع المكان والزمان الذي تعيش فيه. هل رأيتم حصاناً يعاني الحزن والفرح والألم والفقد والخوف!؟ بالتأكيد رأيتم ذلك! لكن هل ما رأيتموه كان الحقيقة أم كان نتيجة لمسرحة المشهد أمامكم، الحصان يتألم ويحزن ويفرح بكل تأكيد، لكنّه لا يقلق، لأن حبل سرته مع الطبيعة لم ينقطع. أليست الجنة شكلاً من أشكال الوجود، أليست كحياة الحصان؟! لذلك أقول لكم: تكمن الجنّة في أن تعيشوا وفق نظرية هذا الكائن، وبالنسبة لموضوع النمل والنحل والقيادة، فإنّ قلق الملكة خاص بها، والعاملات المسؤولات المختصات بحال الملكة، فهنّ طبقة خاصة جداً، يقمن بدورهن بكل إخلاص، وإنْ حدث ما يخل بهذا الوضع، فالملكة الجديدة تغادر الخلية مع مجموعتها التي لا تعي ذلك. فالخطيئة تكمن في قطع حبل سرتكم مع الطبيعة، أعيدوا وصله، واتركوا لغريزتكم أن تدلكم إلى دوركم، فلكل منكم دوره، فليلعبه بإتقان، وساعتها سينال الجنة. لا تسألوا، ولا تبحثوا عن أجوبة، فهي كالرمال، اتركوها للريح، وكونوا نخلاً أو واحات أو جِمالاً، لا يهم، لكن لا تلتفتوا للأسئلة.

بينما كنت أراقب نفسي، أشار إليّ، وقال: يا أنت...

بداية تغافلتُ عنه، وعن إصراره، بينما بدأ الناس بدفعي، رويداً، رويداً بحركة موجية حتى مثلتُ أمام نفسي، وبحلق نظره في وجهي فأجبتُ: أنا!؟

عدّل من جلسته، ونطق: أترون كم يشبهني! فإنْ جاءكم في غيابي، وجلس مكاني، فهل ستستمعون له!؟

حلّ صمت قاسٍ على الجميع، ومن خلاله تشققتْ كلمتا "نعم" و "لا" وبدأتْ تتكاثر كنحل ترك خليته.

وقفَ بمواجهتي وكأنّي أمام مرآة، وحرّك فمَه، فشعرتُ بفمي يتحرك، فلفظَ ولفظتُ: إنّه الشيطان، فاقتلوه.

انهال عليّ الضرب والركل من كل جانب، ركضتُ بكلّ الاتجاهات، دفعتُهم يميناً ويساراً محاولاً أنْ أشقّ طريقاً أهرب من خلاله، اختبأت وراء شجيرات كثيفة إلى أن تأكّدتُ أنّ من يلاحقني توقف عن ذلك، وبعد فترة من الوقت -شعرتُ أنّها امتدتْ للأبد- استطلعتُ المكان حولي، فوقع نظري على المقعد الزيتي، وبالقرب منه مَن يشبهني ممدداً على الأرض، اقتربتُ

بهدوءٍ، وعيناي ترصدان المكان، لا أحد. وقفتُ فوق الآخر الذي هو أنا، كان محطماً كعودٍ يابسٍ، يشبه كومة من القش ترتدي ثيابي، كخيال المآتة.

*****　　　　　*****　　　　　*****

بدا البابُ صقيلاً أملس جاهزاً لرشه وطلائه بعدة أنواع من الدهانات الشفافة. سركيس يدخّن سيجارته، يشرب شايه الأسود السميك من كثرة السكر فيه، يجلس على عبوة دهان كبيرة، في الوقت الذي أتأمل فيه الباب.

- ماذا يا أستاذ التاريخ، وكأنك لم تر باباً يوماً..!؟

- ما أكثر الأبواب، إنّها كالتاريخ الذي نعرفه، نظل نصقله، ونزيل عنه نتوءاته، حتى يبدو كهذا الباب، لكن صوت الصرير سيظل!

- ضع قليلاً من الزيت في المفاصل كي لا يصيبها الروماتيزم.

شربتُ البقية الباقية من الشاي في كأسي، وقلتُ له: دعنا من التاريخ، وأعطني قليلاً من المال.

مدّ يده إلى جيبه، أخرج ألف ليرة، تناولتها، ومضيت. هبطتُ الدرج من الطابق الرابع، وأنا أشعر بحركة مفاصل ركبتي ووركي. العقل كالمفصل، يصرّ دونما جدوى من تزييته.

كانت الساعة تقارب الخامسة مساءً، عليّ أنْ أستحمّ، وأنام ساعة واحدة. تمضي أيام الأسبوع على هذه الشاكلة، مهما اغتسلت، شممتُ لجسدي رائحة الخشب والدهان. هوية جديدة تتشكل لي، بمكانٍ ما تشعرني هذه الرائحة بالطمأنينة حتى أنها باتتْ تأمرني بالنظر إلى الأبواب، ونوعية الخشب والدهان، الأبواب التي كنتُ أطرقها دون أي اكتراثٍ بها. أحيانا أقف لأتفقد الباب الذي أمامي، فيتفاجأ الذي يفتح الباب بي، وأنا ذاهل عنه، متى اخُترع أول باب؟!

أعتقد أنّ الصوت هو أولّ بابٍ يُستأذَن منه للدخول، وللصوت صرير أيضاً، فصوت الغضب المبرر للاقتحام سيكسر خشب صوت الاستئذان، وصوت العاطفة سيدفع الباب بلطف، الحيوانات استغنتْ عن ذلك بالرائحة، والرائحة لا تفتح بابها لأيٍّ كان، ومن يخترقها يُعتبَر معتدياً، الحيوانات لا تحبّ مشاركة أحدٍ في بيوتها، أمّا نحن ومهما كان تعليلنا لقضية المشاركة، فستبقى أمراً ضرورياً لإيقاف القلق من الوحدة في بيوتنا، نملؤها بالزوجة والأولاد والضيوف حتى تضيق بنا، ونمدّ الشرفات، ونفتح الشبابيك، كلّ هذا ولا تحدث الطمأنينة التي يشعر بها الحيوان ما أن يدخل بيته، بيت الحيوان جسده، إنْ خُرِق يعني موته، أما بيت الإنسان فلا يصل لهذه المرتبة.

بين "بروتوكولات" الدخول والخروج رنّ الموبايل، محمود يتصل بك، بيت آخر يحتاج لاستئذان!

*****                    *****                    *****

ما العيب في بوصلتي!؟ أنا مثل درويش يدور ويدور، أو حمار يحرك الرحى، ولا يتوقف خوفاً من العصا التي ستلسع قفاه، هي لسعة واحدة، لكن ما الفائدة من التوقف إنْ كان لا يستطيع فكاكاً!؟

أنْ تستيقظ مبكراً يعني أن لديك عملاً. أؤجل استيقاظي إلى الساعة التاسعة، أي حظ جيدٍ رتّبه تخطيط بيتنا، فغرفة الجلوس والشرفة لهما حيزهما الخاص، وبهذه الطريقة أخرج دون أن يلحظني أبي وأمي المتقاعدان، أوفر نظراتٍ غير مريحة، أكره تلك الشفقة.

حلم البارحة، أذكره بتفاصيله، تضحكني شخصيتي في الحلم، ما هذه الفلسفة التي ابتدعتها فيه، أتكمن المشكلة في الوعي!؟

أمشي في شوارع طرطوس، قدماي تعرفان الطريق عن ظهر حذاء، فلا أفكر. كل شيء محسوب بدقة؛ فعندما أقطع الشارع أو أنتظر إشارة المرور، فأنا أعرف كم تحتاج من الثواني لتتحول إلى الحمراء أو الخضراء.

ضاقت طرطوس كثيراً، مشيت في كل شارع وزقاق، فخبرتي هذه تؤهلني لأكون ساعي بريد، مهنة مصيرها للمتحف، دوماً خبراتي تأتي متأخرة عن الزمن الذي أنا فيه، شهادة في الفلسفة، والأفضل أن نقول: تاريخ الفلسفة!

أدخل حديقة المدينة المسماة بحديقة الباسل، أقترب من المسرح، تتجمع في ساحته مهملات يوم سابق، أجلس، وأتأمل المدرج الحجري، أهبط إلى ساحة المسرح، وأدور حول نفسي، تبدأ خيالات بالتشكل، أصعد على المدرج، ما هو الدور الذي أقوم به، وأي قناع أرتدي، وما الكلام الذي سأقوله؟!

يختفي ما ألّفته في الحلم، وتبدأ أشجار الزيتون بإلقاء ظلّها على المدرج، وفي غمرة خيالاتي، أتنبّه لشاب وفتاة يصفقان. ماذا قلتُ، وماذا فعلتُ؟!

أردتُ سؤالهما، لكن عن ماذا!؟ أشيح بنظري عنهما.

*****                    *****                    *****

تأتي ولا تشتري، تقلب الثياب، وتهمس: لا جديد لديك!؟

الشرارة بدأتْ منها، من بضاعة محمود القديمة كما قالت.

اسمها عليا، لم يكن اسمها في قائمة الأسماء التي يحبها محمود، ولا شعرها الأسود وعيناها العسليتان، وقوامها النحيف جداً، لا تشبه الأنثى التي عمّر بها أحلامه، فمَن كتب لها شعراً لا تتشارك معها بمورثاتٍ ولو كانت من الجد السابع، لكن... هذه الـ " لكن" جمّرتْ قلب محمود، أرّقته، لم يمضِ وقتٌ طويلٌ حتى بدأ يواعدها.

كان محمود قبل أن يتعرف عليها يكتفي بالنظرات، أو بصلصالٍ يصنع به أوهامه الجنسية التي لها رائحة الصابون في الحمام، رائحة ليستْ كرائحة عطرها التي بقيتْ على قميصٍ اشترته، وعادتْ به بعد ساعاتٍ لتخبره أنّه لم يناسبها، استبدلته بقطعة أخرى، وتركتْ محمود مع القميص الذي لم يرجعه لعلّاقة الثياب، بل وضعه في حقيبةٍ، وأخذه إلى غرفته. عندما خرجتْ من سريره عارية، ناولها إياه، كان يبدو كأنّه ورقة مطوية آلاف الطيّات، له رائحة عرقه، وسائل أودع نظيره منذ قليلٍ بمحارم من نوعية خفيفة.

لم يحتج محمود ليشرح شيئاً، قالها بهدوء: يا شباب أصبح للغرفة حرمة.

أخرجتُ علاقّة مفاتيحي، كذلك داني، ونزعنا منها مفتاح أطلنطس، لم نتهكم وقتها، بل تابعنا مشوارنا على شط البحر بهدوءٍ لم يكن يعكر صفوَه شيء.

*****                    *****                    *****

تصنع الأنثى للرجل باباً، فيصبح للطرق على الباب معنًى آخر.

يحفّ داني الأبواب كأنّه نواسٌ. أبواب لمداخل البيوت، أبواب كبيرة، أبواب صالونات، أبواب غرف نوم، أبواب حماماتٍ، لكل باب ناسه الذين يمرون من خلاله، ومن ثم يحذرون من حصان طروادة أن يدخل عبره.

*****                    *****                    *****

من جديد تخرجنا حواء من الجنّة، فغرفة محمود، التي لم نكن فيها وحدنا، أنا ولمياء على الرغم من كل الخطط، كانتْ تشكّل ملجأً في حال الهروب من البيت. إنّ قدرتي على الخروج وصفق باب بيتنا ورائي جعلتني أكثر تماسكاً في النقاشات التي جرت بيني وبين أبي، وأكثر قدرة على الهروب من إلحاح أمي تجاه موضوع الزواج. كان مفتاح الغرفة طاقة فرج لي، رغم أنّ نقاشاتنا كانت تنتهي إلى الصلح تحت مقولة: **(ما على الرسول إلا البلاغ)...** ما أكثر الرسل!

تصلني رسالة من لمياء، أظنّها ستكون سعيدة لعدم طرحي موضوع غرفة محمود من جديد، فمحمود لن يقبل أنْ تكون غرفته موضع شك لدى جيرانه، سيحافظ على سمعتها فعلياً، كما يقول، لأنّ عليا ستكون زوجته!

أقرأ رسالتها على عجل، لولا طاولات المقاهي التي جمعتني بلمياء، لقلتْ: إنّها من نسج الخيال، أو شخصية رقمية تعيش داخل الكومبيوتر.

التقطتني من غرفة للمحادثة الافتراضية ومن ثم إلى سماعة الهاتف، فلقاء وكلام، من دم ولحم في الكلمات فقط. من جديد تبدو الكلمات هي عالمي سواء كانت مكتوبةً أم منطوقةً، كلمات ليس لها قدرة إلّا على خلق سرابٍ في لحظة القذف التي يرتعش جسدي خلالها.

لمياء أنثى من تخييل، تكره الجوانب الواقعية بعلاقتنا، فعمرها الذي تزيدني به، وانتهاء دورة خصبها، وتهديد الواقع لها في لحظة اختياري لأنثى أقرر معها إنشاء أسرة كأيّ رجل؛ أسبابٌ تكفي - كما ترى لمياء - للقضاء على جانب الخيال في التخييل.

محمود يخطط لبناء أسرة، غريب أمره هرب من أسرة ليكون هاجسه الآن تشكيل أسرة.

قالت لي: إنّها تحتفظ بكل محادثاتنا، وبأصوات آهاتي، وصور عضوي، وستبقيهم لتعتاش عليهم عندما أغيب نهائياً، فتبقي نار خيالها متّقدة.

قلتُ ساخراً عن سرّ هذا الاحتفاظ: يوماً ما ستقيمين متحفاً، وسيبيع ورثتك مقتنياته كأول وثائق واقعية، لعلاقة عاطفية شبه افتراضية عندما يسود الافتراض بشكل كامل بدلاً من الواقع في عالمنا، لذلك سأكتب وصية أطالب فيها بتلك المقتنيات.

أمّا هي فقد اعتبرتْ كلامي نبوءة، وأخذته على محمل الجد. هل تستأجر صندوقاً خاصاً بها في أحد المصارف، تودع به علاقتنا الافتراضية!؟

تطنّ بعوضة قرب أذني، صوتها يشبه صوت انقضاض الطائرات في الحرب العالمية الثانية، أجلس على حافة سريري، سنوات مضتْ، أشعر بصعوبة في تحديد التاريخ، الماضي لديّ قد حدث، ليس له تاريخ مرقوم، فالزمن يحتاج لعلامات فارقة لتتذكره، كما في النظر للبحر، المسافة في البحر خادعة، ما تحسبه قريباً يتكشّف لك بعد أن تسبح باتجاهه أنّه أبعد مما تصورت.

أحتاج لعلامة فارقة كخطيئة أؤرّخ بموجبها الزمن، الانتظار ليس خطيئة أصلية، ولا الكسل، العمل هو الخطيئة التي يعمر بها الكون، وما الخطيئة؟ ما العمل؟ سأتفلسف، سأصبح فيلسوفاً ؟!

***** ***** *****

عند بداية عمل داني في ورشة الدهان كان يضع دوماً قرب سريره كريماً لترطيب اليدين، أو حسب ما يسميه " بالبزّاقة البيضاء"، يمد معجون الكريم على عدة أماكن من كفيه مستثنياً إبهامه وسبابته، فهو يستخدمهما للضغط على جسد المرهم الأسطواني ثم يبدأ بتحريك كفيه بحركة التفافية يشعر بعدها بعودة الإحساس والملمس السابق لأصابعه، وباطن يده، وظهر كفّه، فعل

ذلك لأسبوعين بشكل يومي، ثم توقف عن ذلك، لأنّ نعومة اليد تسمح له بإدراك خشونة الباب فقط، أمّا الخشونة فجعلته يدرك العكس أيضاً، وأعطته مقداراً كبيراً من الثقة، كما أنّ القوة التي زُوِّد بها من حفّ الأبواب غيّرت طريقته في المصافحة، حتى صاح به محمود: يا رجل ما الذي يحدث لكَ، وكأنّكَ تسلم سلام مَن كان غائباً، عرفنا أنّ كفك صارت كالكماشة!

باسم لم يلحظ ذلك، فأمّه تقول له: لكَ عصب جدك القوي، إذ كان يكسر ساعدين معا، وهو يضحك في مصارعة الأذرع.

شيء ما حدث في فكر داني، وكأنّ خشونة كفيه أعطته هوية أخرى حتى أنّه ترك المحادثة مع الأجانب على "الماسنجر".

تمتد يده بشكل فوري إلى أيّ خشب في متناول يده، طاولات المقاهي، أعواد "الآيس كريم"، أعواد الثقاب، وأعواد تنظيف الأسنان، حتى عندما يريد أنّ يعطي تشبيهاً يستحضر الخشب، اقتنى مسبحة من حبات الزيتون، تبقى في يده اليمنى مادام لا ينجز بها عملاً، يلعب بحباتها، يسقطها الواحدة تلو الأخرى في دورة لا تنتهي، أو يدخلها في يده كأساورة تستقر عند المعصم.

***** ***** *****

لسنا جماعة بل فرقة، كلّ شخص فيها له كيانه الخاص، إنْ غاب، حدث نقصٌ لا يمكن تعويضه. إنّ دخول عليا إلى حياة محمود أحدث شرخاً، إذ شكلتْ معه فرقة خاصة، لم ينتبه داني للأمر، يبدو أنّ الخشب المهووس به شكّل له بديلاً أو اكتفاء. أنا، فقط، مازلتُ أقف على أطلال فرقة الفرسان الخائبة !؟

ماذا عن لمياء؟ هل الافتراض الذي يجمعني بها سيعافيني من النقص الذي أحس به؟!

سابقاً لم أشعر بوجود ماريا في حياة داني كما أشعر الآن بوجود عليا في حياة محمود، لم أعتد على التقيّة بيني وبين ذاتي.

ألهذه الدرجة كانت غرفة محمود تعنيني؟ ما الذي أملكه فيها!؟ حقيقة لا أملك شيئاً، المفتاح كان أقرب لـ"إكسسوارٍ" في علّاقة مفاتيحي ذات المفتاح الوحيد لباب بيتنا، أمّا المفتاح الصغير للدرج الخاص في خزانة غرفتي فسيبقى طفلاً يعتقد أن عليه تخبئة أشيائه الخاصة حتى تصبح ذات قيمة.

كانتْ غرفة محمود سلاحي السري الذي لم أشهره إلّا بيني وبين ذاتي ملوّحاً فيها بالخروج النهائي من قوسي أبي وأمي، كنتُ قاب قوسين أن أفعل، ولم أتدلَ، ولن أنجز ذلك أبداً.

كم يصبح المستقبل قريباً بعد الأحرف الناصبة، كذلك الماضي بعد الأحرف الجازمة للأفعال الحاضرة، كأنّ النفي آلة للزمن كما تفعل الـ" لا" عندما تقرب النضوج.

***** ***** *****

لا آرمة ترتفع فوق كشك محمود لبيع الثياب، البعض مثله، والبعض الآخر وضع آرمات لتبقى في ذاكرة الزبائن، ومن ثمّ تتحول إلى علامةٍ تدل على الكشك عند السؤال عنه، بدايةً فكّر محمود بذلك، لكنّ الأكشاك المتراصة تجعل من الأمر مضيعة للجهد، كما أنّه أراد للزبونة أنْ تكون ساعي بريده الذي يضع رسائل جودة بضاعته في آذان المستمعين، خاصةً أنّه يبيع الثياب النسائية، والأنثى ستذكر مَن يمدحها، ويثني على ذوقها في الثياب.

الشعر الذي غادره إلى غير رجعة كان يطلّ هنا بمكرٍ، فلا محمود ينتبه له، ولا الشعر يُثقل عياره. كلمات كالنسمة، تهزّ الأنثى التي ترى في الثياب غايات جمالية أكثر من كونها لاتقاء البرد والحرّ، فالثياب عند الأنثى أعضاءٌ نسِي الخالقُ أنْ يزودها بها، فتقوم هي بخلقها وكأنها تستكمل ما نسيه الإله، كونها تتشابه مع الخالق بموضوع الخلق، وإنْ لم يكن من عدم، وتريد من أحد ما أنْ يقول لها: هذا حسنٌ، تشبه هذه الحالة، وضع "يهوا" عندما خلق النور، ولم يكن قد خلق من يثني على عمله، فأثنى هو على نفسه، ومحمود كان يلعب دور مَن يثني دائماً.

في الصباح يرفع باب كشكه، يعلّق الثياب، يصنع قهوته، وينادي جاره عادل. عادل يبيع الثياب الأجنبية، ثيابا من ماركات عالمية مشهورة، لم يبخل على محمود بسرّه، فهو يذهب لمحلات البالة، ويتفق مع صاحبها أن يشتري كلّ ما يعتبره صاحب البالة غير صالحٍ للبيع على الإطلاق، وفي بيته يقوم بنزع العلامة التي يُكتب عليها اسم الماركات العالمية، ليقوم بتثبيتها على الثياب الوطنية،

يهمس لمحمود: نعم، إنّي أغش، لكنّ خداعي لصالح الطبقات الفقيرة.

كان في مراهقته يميل للفكر الشيوعي الذي لم يعرف عنه إلّا مقولة ماركس: (الدين أفيون الشعوب)، والعديد من أسماء قياداته، كما كان ينسب الكثير من حديثه "لهيغل" حتى صار الجميع ينادونه بالشيوعي، يعلق صورة لـــ"جيفارا"، ويضع "بيريه" حمراء، ويدخن "البايب"، ويشتري جريدة للحزب الشيوعي، علماً أن مَن يقرأ الجريدة، كان محموداً وليس عادلاً.

ينضم إليهم أحياناً طارق، بائع الثياب الداخلية، كان المصدر الأول للمجلات التي تُعنى بتقديم الجديد في مجال الملابس الداخلية، يطلع عليها عادل، و أحياناً محمود الذي كان يمررها بدوره لداني و باسم، أمّا بعد انتشار الفضائيات و"الإنترنت"، فإنّ طارق فقد تلك الميزة التي عُرف بها، كما أنّ العمل في مجال الثياب الداخلية أورث طارق بلادةً شكا منها إلى محمود وعادل، إذ أنّ علاقته الجنسية مع زوجته ليست على ما يرام، و فسّر ذلك بأنّ رؤيته اليومية للثياب الداخلية جعلته يعتادها، ولم تتوقف الشكوى إلّا بعد أنْ وضع عادل يده على الجرح ملمحاً له بأنّ زوجته

تحولتْ إلى قاطرة من اللحم، وهذا هو سبب المشكلة، فكلّ الثياب الداخلية التي يبيعها لا تصلح لها. عضّ طارق على جرحه، وغادر الجلسة، و منذ ذلك اليوم لم يعد لذكر الموضوع.

يضع محمود الكتاب الذي يقرؤه تحت مستوى الطاولة، وعندما يأتي أحدٌ، يضع الكتاب في الدرج، يقرأ خلسةً؛ فهو لا يريد أن يجد أصحابه في سوق الأكشاك صفة ليلصقوها به، ويصبح مدارَ سخريةٍ، بالطبع ستكون صفته المثقفَ الذي يبيع الثياب النسائية. محمود حافظ على العديد من الجوانب مخفيةً عن محيطه في السوق، ولم يحدث أن جعل علاقته بزملاء مهنته تتجاوز المكان، كان بنظرهم بسيطاً وطيباً، وكان هذا الحكم كافياً لمحمود، وحذّر كلاً من باسم وداني أن يخرقا، عند قدومهما إليه، الشخصية التي رسمها لنفسه في السوق.

*****          *****          *****

عندما استأجر محمود غرفته من أبي قاسم عرفَ أنّ تقديم الأجرة قبل موعدها سيكفل له عدم متابعة أبي قاسم له، فالطمأنينة التي أوجدها لدى المؤجّر ستعمل عملها في إبعاد نظره عنه، كما أنّه حافظ على مسافة أمانٍ مع كل من سكن حارته.

مرّت سنوات، ومحمود هو الرجل الطيب الغامض، وعندما عادتْ صداقته مع باسم وداني استمرّ الحال على ما هو عليه من هدوءٍ وسريةٍ.

غرفة محمود تقع خلف مخازن يؤجّرها أبو قاسم؛ الدخول إليها لا يثير الشبهة، فالبناء يقسم إلى شقق للسكن، وشقق تستخدم كمكاتبَ يدخلها ويخرج منها الكثير من الناس.

بشكل ما، يُعتبر ما سبق الشرحَ الذي قدمه محمود لعليا عن غرفته، التي تكاد لا تُلحظ، كي لا تخاف من القدوم إليها، وكان باسم قد قدّم لمحمود الشرحَ ذاته عندما فكّر باستعارة الغرفة منه، في ذلك الوقت لم يمانع محمود، لكنّ لمياء هي من رفضتْ، والآن بوجود عليا لم يعد من المناسب طرح الموضوع من جديد.

داني يقول: بلادنا ضيقة، لا يوجد خلوة حقيقة فيها، أنتَ مراقب بشكل دائم، وكأنّ فرديتك عارٌ عليك ستره.

أحسُّ تماماً بمقولة داني، وبشكل ضمني يشعرني محمود أنّه يأخذ المقولة ذاتها بعين الاعتبار. لا فردية، فالطرق لدينا ملكٌ للجماعة، وما تفرضه من أعراف، ليس هنالك ما يمكن أن تسميه طريقكَ الخاص، لربما وُجِد في العاصمة، حيث الزحام والبناء العشوائي يتكفّل بذلك، أخبرتُ الشباب مرة: أنّ الحداثة لا يمكن أن تخرج من أبنية محددة بشكل حقيقي على خرائط الطبوغرافيا، لأنّها تنشأ من تلك الأمكنة التي لا تستطيع السلطة أن تضع يدها عليها.

**********          *****

أصبح داني يغيب أكثر فأكثر، يأخذ العمل وقته كاملاً، نلتقي تقريباً في أيام العطل، استلم مع سركيس مهمة تأهيل كنيسة قديمة، عبر داني ممراً استظلّ بأشجار السنديان، مغطًى بقطع من الحجر سمحتْ للعشب والتراب أن يتخلل وجودها، حجر أسود اكتسب نعومة الرخام لكثرة الأقدام التي داسته. الكنيسة ليستْ كبيرة؛ بهو ومذبح وغرفتان ومقبرة في باحتها الخلفية.

دخّن داني سيجارته حتى عقبها، جلس على أحد المقاعد، ونظر إلى المسيح المعلق على خشبة، الخشب الذي صُنع منه الصليب، بدا عتيقاً، زاده الضوء المتسلل من النوافذ المعشّقة بدخان البخور شحوبا، كلّ ذلك جعل داني يحسّ للمرة الأولى بالألم الذي يتكبّده، هذا الذي ينظر للسماء بعيون غائمة.

ناداه سركيس من الخارج: ليس الآن وقت الصلاة.

بدأ داني بنزع الباب الخارجي من مفاصله الصدئة، ووضعه على حمّالة خشبية. أمسك بورقة حفّ خشنة، وبدأ الحفّ، وكلما حفّ شَعَرَ أنّه يحفّ شيئاً صلباً داخله.

**الهبوط**

التقطتُ بعض الصور من بعيد، لم يسمح لنا رجال الشرطة بالاقتراب، الجميع كان يعرف أنّ اليوم، هو اليوم الذي تنتهي فيه المهلة الثالثة لإخلاء تجمع الأكشاك الذي تنامى، والذي لا أحد يعرف كيف شُرعن وجوده، وصار له من القدم ما يمكن اعتباره معلماً، حتى أنّ مجلس المحافظة كان يعطي التراخيص، وينظّم عمليات بيع تلك الصناديق الحديدية. كل شيء كان يوحي بأنّ الأمر منظّم، لكنّ العلاقة مع الدولة كالأعمى الذي يعوّل على عدد الخُطا بينه وبين شيء آخر دون أن يحسب أنّ أحداً ما قد يتدخل، ويضع عائقاً.

لم يقاوم محمود، قبل ساعة عرف الجميع أنّ المكان سيزال نهائياً، وأنّ الأمر حُسم، والجرافات تتجه إلى سوق الأكشاك، وهذه المرّة ما من مهلة جديدة! و كما يفعل النمل ـ عندما يداهمه الفيضان فيحمل بيضه بفمه و يمضي ـ حمل الجميع ما أمكن من بضاعتهم إلّا محموداً، خرج بهدوء من كشكه، ألقى نظرة أخيرة على المكان الذي قضى به سنوات، كان يقرأ في ذلك اليوم كتاباً "لخوسيه سراماغو" اسمه (العمى)، أخرجه من الدرج، و وضعه على الطاولة، تركه هناك، و تجاوز الجموع المحتشدة، وقف بعيداً كأنّه لا ينتمي لهذا المكان، لم يتصل بنا، فترتيبٌ سابقٌ للقاء معه، هو ما جعلني و داني نكون هناك لنشاهد ما حصل، كنّا نشبهه، وكان يشبهنا بخصوص العلاقة بما حدث، انفصاله عن الأمر الذي يجري يشبه اتصالنا به، هشاشة لم تردمها إلّا الصورة التي التقطتها خلسةً من وراء ظهر محمود، لم يسمح لنا منذ اللحظة الأولى أن نندفع لنحمل بضاعته، ولا أن نناقشه بعد أن انتهى المكان لكتلة من الخردة و الغبار المتصاعد، استدار، فتبعناه بصمت، ركبنا سيارة أوقفها، وفي الطريق للغرفة اشترى صندوقاً من بيرة "هاينكن"، يومها شربنا و تبوّلنا كثيراً.

عرض علينا مكتبته، وبعد حديثٍ تقاطعتْ فيه كلماتنا واشتبكتْ ككرة صوف نسجَ محمود فكرة السفر إلى لبنان، ومن ثم إلى أوربا التي سيمزق فيها جواز سفره.

من أين له بهذا الصديق اللبناني الذي سيؤمّن هروبه إلى بلدٍ أوربي، من أين ظهر؟!

لا أدلّة سابقة على وجوده، في قرارة نفسي كنتُ أعرف أنّه يكذب، لكن مَن يترك كل شيء وراءه عليه أن يجد كذبة كبيرة بحجم الأمل.

نقلتُ الكتب إلى غرفتي، وضعتُها في صناديق ورقيّة ريثما أثبّتُ الرفوف ذاتها التي ثبّتُّها مع محمود في غرفته.

مضتْ ثلاثة أيام كانت كافيةً لتفريقنا عن بعضنا البعض. ما يحدث الآن يشبه تماماً اليوم الذي نجحنا فيه في البكالوريا؛ من جديد يغادرنا محمود. في ذلك الزمن لم أفكر بفكرة عدم اللقاء ثانية، أمّا اليوم فقد انتابتني قشعريرة باردة وأنا أضمّه. ركب سيارة صفراء ستقله من طرطوس إلى بيروت.

هذا ما يتداعى لي من أفكارٍ، لو حدث ذلك حقاً!؟

*****                    *******

اتصل محمود بي: أنا في السجن...

عندما أتتْ الجرافة اندفع محمود حاملاً عصًا، وبدأ يضرب بها الهيكل الحديدي للجرافة. حاول أحد رجال الشرطة منعه، فدفعه أرضاً، بعد ذلك اعتُقِل محمود و رأى -قبل أن تغادر به سيارة الشرطة المكان- قدمه الأولى على هذه الأرض تختفي، دُمرّ الكشك، وقد رأيتُ الخراب، وأنا أستقل سيارة الأجرة باتجاه مكان توقيف محمود، التقطتُ صورة للمكان من موبايلي، أعطاني مفتاح الغرفة ومفتاحاً آخر لدرجٍ يضع فيه بعض المدخرات.

اتصلتُ بأحد المحامين الذي يعرف كيف يضع الرشوة في المكان المناسب، ليتابع إجراءات إطلاق سراح محمود. أعطيتُه أتعابه، والباقي سلمته لمحمود مع علبتي سجائر.

احتفظ محمود بموبايله، لم يكن حراس السجن يرون في الموقوفين غير رزق يعتاشون عليه، بالمقابل يجد السجناء عن طريقهم ما يجعل التوقيف أو السجن أقلّ مشقة. اليوم لم أشعر مطلقاً أنّ الرشوة شيء مشين، بل تأقلمٌ يجسرُ الهوّة بين جسد الواقع وجسد الأخلاق.

اتصل محمود وقال: إنّ مخطوط الرواية كان معه في الكشك.

ذهبتُ مع داني، بعدما عرف من صديقة أمّه التي تعمل في البلدية أين رُميتْ مخلفات سوق التنك، وصلنا هناك، كان عدد من الناس ينبشون في مكب الزبالة، ولاحظتُ فوراً أين يمكن أن تكون مخلفات كشك محمود، فقد رأينا ثياباً تُنتشَل من بين الركام، وأحد الأولاد الصغار يقيس كنزة نسائية حمراء، ويلبسها فوراً، كما رأينا آخرين مستمرين بالنبش.

غصنا جميعاً في الغبار والركام، وجد داني رواية (العمى) مشروخة لعدة أقسام، ووجدتُ الغلاف الكرتوني للمخطوط، وقد كُتِب عليه كلمة رواية تليها عدّة نقاط.

في البداية استهجن الناس الذين ينبشون في القمامة قدومنا، فشرحنا لهم أننا نبحث عن أشياء لا تهمهم، وأنّ مخلفات واحد من الأكشاك كانت لنا، وأخبرناهم بأن يأخذوا كلّ شيء، لكن إنْ وجدوا كتاباً أو أوراقاً فليعطونا إياها، لأننا سنعود غداً أيضاً.

صدر القرار، ونُفِّذ بأسرع مما كنّا نتوقع، فالنيران المشتعلة في المكبّ زحفتْ إلى القمامة الجديدة. أجّلت قول الحقيقة لمحمود إلى أن أطلِق سراحه ليحاكم طليقاً، لأول مرّة أرى محمود قد ذهبتْ منه الحياة، قلتُ له: ستكتبها من جديد، من المؤكد أنّك تتذكرها، حدث ذلك مع كثيرين، تمنيتُ أن تسعفني ذاكرتي باسم كاتب ضاع مخطوطه، وعاد لكتابته من جديد. لم أتذكّر، اللعنة على ذاكرتي الانتقائية...

لم يجبْ محمود...

تركتُه ليرتاح، من أين جاءتني تلك التراجيديا التي نسجتها في البداية عن وقوف محمود الهادئ، وهو يرى كشكه يتهدّم، ثمّ منحه الكتب لي، وسفره!؟

***** *********

عندما طلب محمود أن نتركه وحده لعدّة أيام، لم أوافق. خفتُ من انتحاره، لماذا انتابتني هذه الفكرة؟! ربما من مؤشراتي الذاتية، لو كنت مكانه هل أفعلها؟لا أعرف! لكن ما أعجبني في الفكرة، كان تراجيديتها، وأنني سأصبح حديث المدينة، وقد تشتعل الاضطرابات من بعدي، وتحدث ثورة... في أحلام اليقظة نصنع أفلاماً، ونعرضها على شاشاتنا، وعندما نقرأ التاريخ، يصدمنا هول أحلام اليقظة التي كلّفت البشرية الكثير من الدماء، رغم ذلك؛ فإنّ الدماء هي العامل الوحيد للتغيير، دونها يكون كلّ تغيرٍ دبلوماسية، فالأرض لا تغيّر ناسها إلّا بعد أن ترتوي من الدماء.

أحجار "الدومينو" عندما تبدأ بالتساقط لا يمكن إيقافها إلّا بكسر السلسلة، لذلك كنتُ اتصل بمحمود عدة مرات في اليوم، وهو يُغلق الاتصال، فأعرف أنّه مازال حياً، كذلك فعل داني. مضى الوقت ثقيلاً. ... واتصل محمود.

***** *********

محمود ابن طرطوس، لايحبّ السباحة، ويكره الماء، فلم تنجح كل المحاولات "الفرويدية" لكشف سبب هذا الخوف، يكره الماء فحسب. اتصل، وقال لي: ألستَ مشغولاً؟ علّمني السباحة! صرختْ: السباحة!؟

وقفنا أمام شاطئ "عمريت" حيث جرتْ أول أولمبياد رياضي، أنا في "مايوه" أزرق، ومحمود في "مايوه" أسود، وطوفٌ بقربنا.

تمنّى محمود لو كان سلحفاة تسبح بمجرد أن تفقس من البيضة.

- فقط اترك نفسك للماء، السباحة كالنوم. ما عليك إلّا أن تتجاهل ثقلك.

ضحك محمود، وهو يبصق الماء المالح من فمه، ويتمسّك بالطوف.

مضتْ نهارات عديدة حتى تعلّم محمود أن يطفو على ظهره قليلاً، كان يتقدم ببطء، يثير رشاشاً من الماء حوله عندما يخبط في الماء، وفي غفلة مني رأيتُه ينساب كسمكة قربي.

خرجنا إلى الشاطئ، حتى هذه اللحظة لم أسأله عن التغيير المفاجئ، وعن رغبته بتعلّم السباحة. لم أفهم إجابته سريعاً: ربما سأحتاج لها!

أفكر في سبب حاجته للسباحة !؟

بدأ يسبح أعمق فأعمق، أراقبه من الشاطئ، وكأنّه في تمرين، يأكل وينام .... يسبح، يذهب معي أو بدوني.

**الغرق**

ظهر رقم غريب على شاشة موبايلي، لقد كانتْ عليا، صاحبة محمود، طلبَتْ لقاءً، فلم أمانع.

التقيتُ بعليا في العاشرة صباحاً، تحدّثتْ عن فكرة السفر لدى محمود، ورجتني أن أقنعه بالعدول عنها. كنتُ أراقب أصابعها طوال الحديث، تلتقط الفنجان بخفّةٍ كما يلتقط تيارُ هواءٍ عصفوراً في طيرانه، كأنها ظلّ، ترشف قهوتها، وتغمض عينيها، فأحاول أن أستشفّ حركة البلع في رقبتها، والشهقة التي يرتفع بها صدرها بعد زفيرٍ طويل، تكاد عيناها تطلقان الدمع كسرب سمك، صوتها ناي أخضر ينتظر أن يُقطَع بعد يباسه، ويَصْفَرّ ليصبح لحنه شجياً، هذا ما لم يفعله محمود، تركه أخضر، وهو الذي اعتنى بأجمة القصب لكي ترقص مع الريح، فتخلّى عنها، كضارب إيقاع هجر راقصته، فتحجّر خصرها.

وعدتُها أنْ أفعل، سأحاول مع داني أن نقنع محمود بعدم السفر.

ودّعتني، بقيتُ على الطاولة أراقب مشيتها، وكأنّ في أليتها ساقي أرنب يقفز بهدوء، وهو يقضم العشب، البارحة لم أثبّت رقمها، طلبتُ فنجان قهوة ثانيًا، فتحتُ الموبايل على قائمة المكالمات الواردة، كان رقمها **(0944704413** ) كتبتُ أحرف اسمها بضغطات متأنية: ع، ل، ي، ا، ثم حفظتُ الاسم.

الحفظ، هل هو التذكر؟ لا أعتقد، الكثير مما في ذاكرتنا يُحفظ بشكل تلقائي، وهنا ينقسم الحفظ إلى نوعين: الأول شعوري والثاني لاشعوري، وهذا ما يَنقُص ذاكرة الموبايل. كل شيء لديه بوعي، فالجانب اللاشعوري من ذاكرته غير موجود، هكذا سيتخلص الذكاء الصناعي من عقدة أوديب.

أحضر الجرسون فنجان قهوة لي، دفعتُ الحساب سلفاً كي أغادر وقتما أريد، وضعتُ محفظة النقود في جيب البنطال الخلفية اليسارية، وأنا أحسب المبلغ المتبقي. دائماً كان ميزان حساباتي خاسراً بشكلٍ يستتبع تفليس شركة **(باسم محدودة المسؤولية)** لشهرٍ كاملٍ.

لا تحتاج قدماي إلى عينيّ وهما تخطوان في شوارع طرطوس، كذلك لاشعوري لا يحتاج للعبة الحلم لكي يمرر رسائله "التويتَريّة"، فكانت تغريدته هي أن أقنع محمود بالسفر.

*****　　　　*****　　　　*****

اتصل محمودٌ بي، وألحّ على مجيئي إليه. حاولت أن أؤجل الموعد للمساء ليكون داني موجوداً فرفض.

بدأ محمود بالكلام:

أتذكرُ يوم أنقذتني، كانوا خمسة رجال يضربونني، حملتَ عصا بيدك، وبدأتَ تضرب كيفما أتفق حتى ابتعدوا، رفعتني عن الأرض، ومن ثمّ هربنا، أتعرف! لقد مضى زمن طويل لم نذهب فيه إلى حيّ الرمل.

- ما الذي أعاد لك هذه الذكرى؟!

- السفرُ غداً عصراً!

- ماذا بهذه السرعة!؟

- لا خيار آخر لدي، فالقبطان الذي سيؤمّن تسللي للسفينة لن يعود من سفرته هذه قبلَ وقتٍ طويلٍ، وسيرسو في إيطاليا، وأنا لم أحضر أية جلسة من جلسات المحاكمة، الحكم سيصدر بسجني لضربي موظفاً عاماً، حتى لو استطاع المحامي تخفيف الحكم سأدخل السجن، وهذا سيقتلني، لكن ليس هذا السبب الذي طلبتُ منك المجيء لأجله، أريد منكَ خدمة كالتي فعلتها سابقاً حين أنقذتني - ربما - من الموت يومها، الآن أريد أن تتستر عليّ، لا، ليس عليّ بل على عليا، عليا حامل!

- ماذا؟!

لم يدعني لتتداعى أفكاري أكثر في فكرةِ حمل عليا، والستر عليها.

-لا تذهب بعيداً بظنك، هي ترفض الإجهاض، وأنا ليس لدي وقت لإقناعها والضغط عليها، أريدك أن تفعل ذلك بعد ذهابي، وكل شيء جاهز، النقود وعناوين الأطباء.

انقضضتُ عليه، وبدأتُ بضربه، وهو لا يردّ، ولا يحرك ساكناً، تركتُه على الأرض مكوماً، وخرجتُ فارغ الذهن. اتصل داني مساءً كي نذهب إلى محمود، اعتذرتُ، واستتبعتُ بكلام عن الخواء، وبأنّ لا رغبة لدي في رؤيةِ أحد، عندها حاول داني أن يأتي لزيارتي، لكني رفضت.

في غرفتي وضعتُ خمس علب بيرة من التنك، وبدأتُ بالشرب، أقفلتُ موبايلي، شربتُ حتى دار كل شيء فيّ، وغرقتُ في اللاشيء، كانتْ الشمس قد بدأتْ بالشروق بعد ليل طويل.

عندما استيقظتُ مساء اليوم التالي وجدتُ على موبايلي عدة رسائلٍ من محمود وداني ولمياء، لوهلةٍ كان قد غاب عنيّ موضوع البارحة، لكنّه عاد أمامي عندما رأيتُ اسم محمود، اتصلتُ به، كان خطه خارج التغطية، حاولتُ مراراً دون الحصول على أيّة إجابة.

اتصلتُ بداني، فجاءني صوته كأنّه يلعنني لأنني تركتُ محمود يسافر دون أن أودّعه، في خضم كلامه اتفقنا على أن نلتقي قرب كورنيش البحر.

نسيتُ أمر رسائل لمياء، والوجه التائه لأبي وأمي وهما ينظران إليَ، وخرجتُ مغلقاً الباب خلفي بقوة. كان داني قد سبقني، وبيده زجاجات البيرة. حاولتُ ألّا أتكلم، تركتُ داني يسرد:

ما الذي حدث؟ وجه محمود كان مضروباً بشدة حتى أن إحدى عينيه مغلقة من شدة تورمها، سألني: لِمَ هاتفكَ مغلق؟ لم أجب! أنتَ وهو، تركتماني بحيرة، وعن وجهه المضروب قال لي: إنّ شباباً من حيّ الرمل فعلوا ذلك، ثم ذكر كيف أنقذته منهم في صيف البكالوريا، لكنّهم تعرّفوا إليه وانتقموا .أنتما تسخران مني، ماذا حدث، بربك يا باسم، أنت من ضربه! لماذا؟! تريد منعه

من السفر، ماذا بقي له في هذا البلد!؟ اللعنة، وما قصة هذه الأمانة، الحقيبة التي تركها لك، تكادان تفقدانني صوابي.

كنت أستند على صخرة، أدلق البيرة في جوفي، يختلط في سمعي صوت الموج المتكسر وصوت داني، تناولتُ الحقيبة من يد داني، وهمستُ: كما كانت أمانة لديك ستكون أمانة لدي!؟

- ماذا!

يرنّ موبايل داني، يجيب على المكالمة، فجأة أحمّر وجهه، وصرخ: أبي في المستشفى!! أنا قادم.

***************

وصلنا إلى مشفى الباسل، عندئذ كان كل شيء قد انتهى، مات أبو داني.

فجأة كبر داني، أصبح رجلاً، ماذا كان قبل ذلك أو ماذا كنت أنا!؟

هزيلاً كان في العزاء، لكنّ عينيه تشبهان عيني أبي، هذا الشبه جعلني أعتذر لأبي وأمي عن تصرفّي في الأيام الفائتة.
مضى الوقت، نسيتُ فيه عليا إلى أن ظهر خبر على قناة تلفزيونية يتناول قضية الهجرة غير الشرعية إلى أوروبا من دول شمال إفريقيا، وحوادث الغرق التي ينتهي إليها مصير المهاجرين غير الشرعيين.

وجه محمود توسّط الشاشة، كان أزرق كحالته عندما تركته وسطَ الموج، وهو يضرب الماء بشدةٍ، كنتُ أضحك، فيما كان يطفو، ويغوص إلى أن توقف عن الظهور. هرعتُ إليه، غصتُ، كان الماء عكراً، خرجتُ للسطح، أخذتُ نفساً عميقاً، وغطستُ ثانية، كصورة باهتة كان يرسو نحو القعر بهدوء، أمسكتُه من شعره، وخرجت به إلى سطح الماء، سبحتُ للشاطئ، ساحباً إياه معي، وكمجنون رحتُ أضغط على صدره، وأنظر لوجهه الأزرق حتى بدأ بالسعال، وإخراج الماء من صدره.

ضممته لصدري، وقلتُ: اللعنة عليك،لا تستطيع احتمال المزاح.

لم يجب إنما بقي صامتاً، قلتُ له: علينا الذهاب لطبيب كي يفحص لك صدرك. نظر إلي، وقال: لا حاجة لذلك، واتجه نحو الماء، ركضتُ خلفه، دفعني إلى الوراء، وأمام ناظري بدأ بالسباحة.

انهمرتْ الدموع من عيني حين توالتْ أخبار أخرى، أغلقتُ التلفاز، وذهبتُ إلى السرير. اتصلتْ لمياء، لم أجب، وفي داخلي صرختْ: ماذا تفعل بي يا محمود!؟ فتحتُ موبايلي، كان في صندوق الوارد رسالة من محمود مضى عليها وقت طويل، يبدو أنّني تناسيتها قاصداً، متعمداً،

جاءتني يوم السفر، كنتُ قد أغلقتُ هاتفي وقتها، الحقيبةُ تناسيتها أيضاً، وضعتُها في الدرج، وأقفلتُ عليها، يحدث الحفظ بالتكرار وبالنسيان أيضاً !

الرسالة:

**(باسم، أنقذتني مرتين، أتظن أنّ ذلك محض صدفة، إنّه القدر، أتعرف لماذا أعطيتك الكتب!؟ ستعرف فيما بعد. لن أطيل عليك، هناك أمانة لك عند داني ، قلتُ له أن يعطيك إياها بعد عدة أيام، هي مبلغ من المال كما أخبرتُك سابقاً، أما مفتاح غرفتي في الفقاسة، فهو عند أبي قاسم، دفعتُ مقدماً أجرة شهرين،وقلتُ له انك ستسكنها إلى حين عودتي، لن أعود، أعرف مقدار تعلقك بغرفة مستقلة تعيش فيها بطريقتك، وكما فعلتَ سابقاً، ستنقذني للمرة الثالثة، الوداع.)**

أردتُ إخبار الجميع لحظتها أنّ محمود قد مات، لم أفعل!

جلستُ بهدوء على حافة السرير، ضرب الماضي بموجه شاطئي، كالفنار أومض، أخفق كشراع تمزّق ليس بسبب ريح قوية بل بسبب الاهتراء، كنتُ سفينة جنحتْ للشطّ، كنتُ كلّ شيء ولا شيء.

أكنتَ تكذب عليّ وقتها، أم أني توهمتُ أنّك تسبح! اللعنة عليك! كان عليك أن تصدّق حدسك، أنت تخاف من الماء، لقد أنقذتُك من فم الموت، والموت لا يترك ضحية زرقاء الوجه، قلتَ لي: إنّك ستقفز إلى البحر قبل أن تصل السفينة إلى الميناء، وستسبح، كانت مسافة أمتارٍ تدرّبت عليها طويلاً، كنتُ أشاهدك، تخرج من الماء، تهزّ جسدك كطائر يريد أن يتخلص من بلل ريشه ليعيده جافاً، تترك الماء العذب يتدفق على جسدك، وكأنّ الملح عقارب تلسعك، تجفف نفسك جيداً، تبحث عن كل قطرة ماء متبقية، لماذا لم أنتبه إلى خوفك من الماء؟ هل كان وجودي يحميك؟ لكنّك سبحتَ في غيابي! ما الذي حدث حتى خفتَ، وغرقتَ!؟

والآن هل أنا وريثك حتى تترك لي تلك التركة، ماذا سأقول إلى عليا وأهلك، اللعنة عليك، كان عليّ أن أكسر لك ساقاً في تلك الليلة.

لم أنم، خرجتُ باكرًا حتى أنّني وصلتُ قبل أبي قاسم. انتظرتُه، واشتريتُ قهوتي من بائع قهوة متجول.

أنهيتُ علبة السجائر الثالثة، بدأت الشمس تمد بساطها على الشارع، تحسستُ علاقة المفاتيح، نظرتُ إليها بينما كان أبو قاسم يفتح دكانه.

كان يعرفني، ألقيتُ عليه التحية، فقال: تأخرتَ.

- نعم ـ الله الدائم ـ مات والد صديق لي، وانشغلتُ بالعزاء.
- البقية بحياتك.
- حياتك الباقية.
- هذا هو المفتاح، ولولا محبتي لمحمود، ومعرفتي بكما، ما قبلتُ بذلك، والغرفة سأستردها في نهاية الشهرين بكل الأحوال.

- كما تريد، إنني مجرد مؤتمن عليها، وأظنّ أنّ محمودًا سيعود قريباً.
- اتفقنا.

ألقيتُ عليه السلام، وخرجتُ. لم أستطع دخول الغرفة.

***************

شربنا القهوة سريعاً. استغرب داني من رغبتي في الذهاب، قلتُ له: لدي ما هو ضروري لفعله، نلتقي فيما بعد.

نظر إلى وجهي بعينين حائرتين: أشعر أن صداقتنا قد اختلتْ موازينها، قلْ لي هل سيحدث شيء آخر، وهل سنعود كما كنا في الجامعة؟! من المؤكّد أن غياب محمود لن يطول.

عندما تلفّظ باسم محمود ضاق نفسي، وكادت الدموع تخرج من سجنها، أشحتُ بوجهي عنه، ومضيتُ صارخاً: لا شيء تغيّر، مساءً نلتقي.

مشيتُ في شوارع طرطوس أتقصّد تضييع الوقت. للمرة الأولى أكره الغرف المستقلة البعيدة عن عيون الناس، غرفتي وغرفة محمود، أشعر أنّهما سجن لي.

أيقظني صوت سائق يصرخ بي، كاد يصدمني بسيارته، لم أكترث به، قطعتُ الشارع، واتجهتُ نحو جسر المشروع السادس، صعدتُ درج البيت، ومع كل درجة شعرتُ أن وزني يزداد، لدرجة لم أعد قادراً فيها على أن أحرك قدمي، ارتميتُ على السرير، وغصتُ في النوم.

كانتْ لمياء قد اتصلتْ عدّة مرات، وأرسلتْ الكثير من الرسائل، لم أقرأها، كل ما فعلته أنّي كتبتُ رداً واحداً، وأرسلتُه لها: **(أشكرك على كل الافتراض الذي كان بيننا، لكن ليكن افتراضُ الوداعِ هو الضغطة الأخيرة على "كيبورد" عالمنا الافتراضي.)**

بعد ذلك، أرسلتْ لمياء عدة رسائل، قرأتُ إحداها تقول لي فيها إنّها استطاعتْ أن تؤمِّن غرفةً كي نلتقي.

غيّرتُ رقم الموبايل وعنوان الإيميل. لقد انتهتْ لمياء إلى سلة المحذوفات، وبضغطة زر اختفتْ مع صوت يشبه تكسّر العشب اليابس.

كم هي سهلة هذه الحياة الافتراضية، وكم تقدّم لك من خيارات، ببساطة تستبدلُ رقم موبايل بآخر، فتذهب معه كل الأحاديث والمشاعر السابقة حتى من غير جهد في النسيان، فأنت سوف تنشغل برقمك و"إيميلك" الجديد. ألوفٌ من الغرف الافتراضية مجانيةٌ، كأنّك رجل أعمال كبير لا يعرف عدد العقارات التي يملكها، فهو يملك في كل مكان شقة، كل ما يلزمه رغبةٌ منه في زيارتها، وبثّ الحياة فيها.

بِعتُ موبايل "النوكيا"، واشتريتُ آخر ماركة "سوني أريكسن". سمعتُ بكاء ابني بجميع الأوضاع، وبمقاطع موسيقيةٍ اخترتها من مؤلفات "زياد الرحباني"، كاليتيم وضعتُه أمام البائع،

وغادرتُ كنخاسٍ باع إحدى جواريه. ألهذه الدرجة كانت الأبوة سهلة في العالم الافتراضي؟ ربما الجنة هي افتراض أكثر دقة من عالم الموصّلات الفوقية.

فكرّتُ بمحنة أوديب وبمحنة موبايل "النوكيا"، هل سيطيل الزمن عمره، وتقدّمُ له التقنيات طريقةً للانتقام!؟ لم أمهل الفكرة وقتاً طويلاً لتجول في رأسي، أعرف عزرائيلَ الشركات جيداً، وأعرف كيف يضع عمراً محدداً للجهاز يبدأ بعده بالهرم نتيجةَ تطورٍ لم يجاره، مثله مثل الإنسان، فيركن في بيوت الشيخوخة، أو تصيبه جلطة قلبية إلى أن يلفظ أنفاسه الأخيرة.

نهرب عبر حضارتنا من الموت والغيب لنعيد إنتاجهما، فهل سيكون خلودنا يوماً يشبه الخلود المتعارف عليه ؟!

***************

طلب داني نرجيلة وكأساً من الشاي، لقد مضى وقت طويل لم نتكلم خلاله.افتتحتُ الكلام بسؤاله عن حال أمه، فأجاب بأنّها حزينة، وفراق أبيه جعلها أكبر سنا، فقد بدتْ عليها التجاعيد، وحركتها باتت بطيئةً، حتى أنّه أصبح يخاف عليها.

همهمتُ، ولم أجب، وفي داخلي أقمع رغبتي بالتكلم عن محمود، سيبقى محمود مسافراً في نظر الجميع، خائناً لصداقاته ولأسرته ولعليا، فالخيانة أسهل من الموت غرقاً، الخيانة ستتسبب حقداً، وستنتجُ مع الوقت نسياناً، خاصةً في ظل غياب الشخص المحقود عليه، وربما سيبقى أملٌ بعودته يوماً، هكذا سيعيش محمود، بحضوره في الذاكرة أو في غيابه، بالنسيان أو الحقد، ويوماً ما سيموت من الشيخوخة.

قاطع داني شرودي، وقال لي: ماريا التحقتْ بالدير، تريد أن تصبح راهبة، اتصلتُ بها عدة مرات، كان رقم هاتفها مغلقاً، حتى أنّها لم تأتِ لتعزيتي، ولم تسنح لي الفرصة لسؤال أمها عنها يوم العزاء، لكنّها غمرتني بشدةٍ لم أفهمها -في ذلك الوقت – إلّا عزاء بوفاة والدي.

انتظرتُ عدة أيام، وذهبتُ إلى بيتها، فأخبرتني أمها بقرارها، شعرتُ براحة في صدري لأنني لم أكن عقبة أمامها، يبدو أنّني لم أكن أحبها، أو أنّي شعرت بالخجل من منافسة عريسها السماوي.

- والآن؟
- لا شيء، أنا رجل البيت. أتعرف أن شراء الطعام، يجعلك تفهم الوجود أكثر من كل الكتب التي قرأناها؟ جلب الخبز يومياً والخضار الطازجة يشعرك بأنّك في الحياة أكثر من أي كتاب تشتريه.

عدتُ لصمتي، ومصطلح المسؤولية يتصاعد بأبعاده في داخلي، آخذ نَفَساً من دخان النرجيلة حتى يمتلئ صدري به، ثم أرسله كأنّه دخان قطار.

تمشينا قليلاً، فهو لم يعد يطيل السهر، لأن الاستيقاظ المبكر، وتعب العمل يجعلانه ينام باكراً. أمّا أنا، فلا عمل لدي ولا مسؤولية، مجرد متسوّل على أبواب الوقت.

لم أكن قد فتحتُ الحقيبة، ولم أتصور أنّ المبلغ سيكون كبيراً إلى هذا الحد، فيبلغ مئة وخمسين ألف ليرة سورية مع رسالة يعدّد فيها أسماء أطباء يجرون عمليات الإجهاض، ثلاثة منهم في العاصمة.

رسالة محمود -المكتوبة بخط أسود على ورق كان يستخدمه لكتابة روايته-رسالة تعليمات، وكأنّني موظفٌ عليّ أن أنفّذها، والحساب مدفوع سلفاً.

لم أعاود الاتصال بعليا، وأظنّها قد علمتْ بسفر محمود. حقيقة ليس لدي معلومات كافية عنها، كل ما أعرفه أنّها موظفة بأحد البنوك الخاصة، ما الذي أخرجها من عالمها لتغرم ببائع ثياب في سوق الأكشاك؟! عادة يذهب من هم على شاكلتها لمحلات الماركات العالمية، وكأحمقَ رددت مقولة: **(الحبّ لا يعرف حدوداً ولا طبقات)**. أظن أنّ العبارة السابقة هي الاستثناء من القاعدة، والقاعدة هي أنّ الحب لا يتجاوز الحدود والطبقات، فهو ابن الألفة والتشابه في المكان والزمان، إنّه كائن كلاسيكي، وما تراجيديات الحب إلّا خرق لتقاليده.

لم تتصل عليا لأنني غيّرت رقم الموبايل، كتبتُ رسالةً لها، كانت الساعة الواحدة ليلاً، اعتذرتُ فيها عن تأخري في الاتصال بها، وأعربتُ عن رغبتي بأن نلتقي غداً.

ضغطتُ على كلمة إرسال، وما إن جاءني الإشعار بوصول الرسالة لها، حتى رنّ موبايلي.

- ألو عليا!

*****          *****          *****

.....

...................

- أبوك مات، وأنت تريد السفر!

باختصارٍ قالتْ أم داني هواجسها، فالطلب الذي قدمه داني للسفارة الكندية قد انتهى بالموافقة، وكل ما يلزم داني هو تأمين مبلغ معينٍ من المال، يستطيع الحصول عليه من خلال الحجز على البيت الذي ورثه عن أبيه، خاصةً بعد أن تنازلتْ أختاه وأمه عن حصصهن فيه.

لم تكن ردّة فعل داني كما حلم بها سابقاً، كان شعوره تجاه الموافقة على الهجرة شعوراً حيادياً حتى أنّ كلام أمّه لم يأت رداً على أي كلام له، فكل ما قاله:

- لقد تمت الموافقة على طلب السفر.

جرى الحديث وهو يتناول قهوته، ضمّ أمّه، مسح دمع عينيها، وقال: لقد تأخّرتُ على المعلم سركيس.

دخل الكنيسة، كان المعلم سركيس يخلط بعض الأصباغ، اتجه نحو الرجل المصلوب، وصلّى. تناهتْ إليه همهمات المعلم سركيس، لم يكترث إليها، وعندما انتهى، نهض، واتجه نحو المعلم سركيس، وأخبره بأنّ عليه تأمينَ شخصٍ بديلٍ عنه.

المعلم سركيس ظنّ لوهلة أنّه أساء لداني، لم يتركه داني لظنونه.

- الموافقة من السفارة الكندية قد أتتْ.
- وأنت تريد السفر مع أمك.
- ستبقى عند واحدة من أختيّ إلى أن أبعث لها لتسافر، سأنهي معك عمل هذا اليوم.

في نهاية يوم العمل أخرج المعلم سركيس من جيبه مبلغاً من النقود، وأعطاه لداني، لكنّ الأخير أعاد المبلغَ، وقال: هذا نذرٌ عليّ للكنيسة، اليوم نذرته، أنا لا أعرف كيف أتدبر أمر النذر، فتصرف أنت.

في طريق العودة تذكّر داني علاقته الجديدة بالخشب وعشقه لها، تذكّر كل تلك الأبواب التي حفّها ودهنها، وحاول أن يماثل بين خشب تلك الأبواب والنوافذ هنا وتلك التي سيحفها في كندا، التاريخ أبوابٌ تفتح وتغلق، وتاريخك هنا قد أغلق بابه.

***** ***** *****

تمضي أيامي بشكل أقرب للعشوائية، كأنّ من رتبَها آخرون، فلا أستطيع أن أستوعب نقلاتها المفاجئة.

دخلتْ عليا من باب قهوة المنشية، كنتُ قد سبقتها إلى هناك، وحجزتُ طاولة جانبية تسمح بحديث يحتمل كل التبعات.

لن أخبرها بموت محمود، يبدو أنّه تخلص من كل ما يدل على هويته قبل القفز إلى الماء.

ما الذي ستتحدث به أنثى تحسّ أنّها خُدعتْ، ورُميتْ كذاكرة لا قيمة لها؟!

تركتها تتحدث، وتبكي حتى شعرتُ أنّها قد أنهكتْ، ولن تكون ردّة فعلها كبيرة على معرفتي بحملها، و بين ذلك كان ينمو في داخلي شعور هو الشفقة.....

طلبتُ إليها أن تسمعني إلى أن أنهي كلامي دون مقاطعة، حدّثتها عن اللقاءِ الأخير مع محمود، والعراكِ الذي دار بيننا، ورسالته، والمبلغ المتروك. نهايةً، أخبرتها عن قضية حملها وإجهاضها.

أزرقّ وجهها، وتسارعتْ أنفاسها، لكنّ ذلك كله حدث بصمتٍ قاتلٍ.

لم أدرِ ماذا أفعل، دفعتُ الحساب، وأجبرتها على المغادرة، أوقفتُ سيارة أجرة، وقلتُ للسائق: إلى الفقاسة.

وعندما وصلنا إلى غرفة محمود بدأتِ البكاءَ بصمتٍ، كانت قد جلستْ على السرير غير المرتب، لقد ترك محمود غرفته دون ترتيبٍ، وهذا ليس من عادته، كأنّه خرج هارباً، بالتأكيد كان يهرب....

تركتُها تنشج، ووضعتُ فناجين القهوة على الطاولة، وبعد بحثٍ وجدتُ في واحدة من العلب ما يمكن أن يصنع ركوةً مليئةً من القهوة، وبينما كنتُ مشغولاً بذلك اقتربتْ من الطاولة، وجلستْ، أمسكتْ علبةَ سجائري لتستل سيجارةً منها، وتشعلها.

أنهيتُ إعداد القهوة، سكبتُها في الفنجانين التي خمنتُ أنّها من جلبها، وأشعلتُ سيجارةً مثلها. نظرتْ إليّ: أتريدني أن أجهض أيضاً!؟

صعقني سؤالها: أنا لا أعرف، لم أفكر بذلك.

رغم أنّها مهمتي، لكنّني لم أفكر  يبدو أنني أعيش فكرة محمود.

-أنت تعرف أنّي موظفة في بنك خاص، وقد عُرض عليّ أكثر من مرة الانتقال لمركز البنك في العاصمة، وهذا ما سأفعله، لكن حملي دون زواج يرتبُ مضاعفات، سيكون أقلها ترك العمل، محمود ترك لك مبلغاً كما قلتَ، وأنا أعطيك مثله... شرط أن تتزوجني، وننهي هذا الزواج بعد إنجابي، أنا لا أريد أن أتخلص من طفلي.
وقفتُ بقوةٍ، أسقطتْ الكرسي ورائي، وصرختُ بها: من أنتم حتى تشتروا حياتي، اللعنة عليك وعلى محمود، عهرك وعهره ليس مسؤوليتي.

بدأتُ أدور في الغرفة كحمار مربوط إلى رحى، أو إلى تعويذة من سحر أسود ألقاها محمود عليّ، ولا أستطيع الفكاك منها. ومن قال ذلك؟! بكل بساطة أستطيع أن أرمي لها المبلغَ الذي تركه محمود ومفتاحَ الغرفة وأغادر لا ألوي على شيء، لكنّني لم أفعل. هل المبلغ المعروض عليّ كان الطعم الذي ابتلعته كسمكةٍ؟!

كنتُ أتخبّط يميناً ويساراً محاولاً الفكاك إلّا أنني في الوقت نفسه أريد لهذا الطعم أن يخرجني من الماء، ربما لأعيش عالماً آخر حتى لو كان فيه محو لكل تاريخ الغلاصم الذي رغبت فيه.

عدتُ للطاولة التي لم تغادرها عليا وكأنها مسمّرة إليها. جلستُ أنظر إليها كمن ينظر إلى الفراغ. وقفتُ من جديد، اتجهتُ إليها، رفعتُها من كتفيها، ودفعتُها نحو السرير، نزعتُ عنها ثيابها، واضطجعتُ فوقها، أدخلتُ عضوي، وقذفتُ داخلها.

كان اغتصاباً، لكنّ عينيها كانتا تقولان شيئاً آخر، كان بالنسبة لها تطهيراً، همستْ بأذني وأنا مستلقٍ بجانبها: لقد استغرق منيك منيه، أصبح الجنين ابنك أنت.

انسلّتْ من السرير، ارتدتْ ثيابها، وخرجتْ دون أن تلتفتَ إليّ، كنتُ فارغاً إلا من رغبةٍ في التبول، أمسكتُ عضوي المُطَهَّر، تدفقَ بولي الساخنُ إلى الأسفل حيث مجارير المدينة تصبُ في البحر الذي عُمِّدنا بملحه طويلاً.

***************

بدأ داني بترتيب أمور السفر، مرّتْ أيامٌ لم نلتقِ أو نتهاتف، كأنّنا متفقان على ذلك. عندما جاء اتصال داني كان قد مضى نهارٌ ومساءٌ على اغتصابي لعليا في غرفة محمود.

كالعادة نذهب إلى نفس القهوة، ونحاول دوماً أن نأخذ نفس الطاولة كحيازةٍ تسمح لنا بالألفة والتجذر.

- أتعرف من رأيتُ مؤخراً؟
- من؟
- رغدة، كانت تقف على إشارة مرورٍ تنتظر أن تعبر، توقفتُ قربها، ورغبتُ بالكلام معها، وهمستُ: **(رغدة)**، تلفتتْ يميناً وشمالاً، لمحتْ عيناها وجهي، فقد كنتُ على يمينها، لكنّها لم تتعرف إليّ، مازالتْ شهية رغم كبر سنها، اقتربتُ منها، وقلتُ: أنا داني، أجابتْ: من داني؟ ضحكتُ وقتها، وذكّرتها بأني صاحبُ قصةِ العضو غير المطهر.
- وماذا بعد؟
- لا شيء، ذهبتُ معها إلى شقتها القديمة ذاتها، لم يتغير فيها شيء حتى الباب مازال كما هو، كذلك طقم الكراسي المخملية اللون، واللوحات ذات الإطارات الأثمن منها، فقط طلاء الجدران بهتَ قليلاً وتقشّرَ في أماكن عدة.
- ضاجعتها؟
- هذا ما فعلته، كنتُ أريد أن أقذف في رحم أنثى هنا في هذه البلد قبل أن أسافر.
- تسافر، أبهذه السرعة؟!
- الموافقة على الهجرة لها وقت محدد ويجب ألّا أتجاوزه، لقد جهّزت كل شيء.

من جديد يضغطني الزمن ويحوّل إيامي إلى ثوانٍ، وقبل أن أستجمع نفسي استكملَ داني كلامه.

هناك سأرى محمود، لا ريب في ذلك، من الطبيعي أن يكون قد أنشأ حساباً له على "الفيس بوك"، سأجده، فالعالم الافتراضي يسمح بتجاوز الزمان والمكان، لقد سقطت المسافة من حسابه، والأهم أنني سأعمل جهدي لتسافر أنت، وسنجتمع من جديد.

أشعرني كلام داني بغرائبيةٍ تسقط داخلها أيامي، هل السبب يكمن في أنّ رغبات محمود وعليا وداني تملك الكثير من قوة التأثيرِ على أمثالي ممن لا يملكون رغبات، يستطيعون بها أن يقاوموا جاذبية رغبات الآخرين؟!

ألهذه الدرجة أنا كائن دون رغبات، فتتلبسني رغبات الآخرين كأنّها أرواح هائمة تحلّ في جسدي الذي يبدو أنّه بلا روح؟!

هل منحى الحياة يتحدّد نتيجة لتجاذب هذه الرغبات؟! إذن، ما هي شخصياتنا وما هي هوياتنا التي ندافع عنها، ومن ثم نسعى لجعلها واقعية؟ يا للسخرية! كل شيء مرتهنٌ بهذه التجاذبات؛ ابتداءً من الاسم فالانتساب لعائلة ثم الهوية والمكان والزمان وقبلاً الولادة، وانتهاءً بالموت!

أين الحرية في ذلك؟ هل الحرية هي رغبة الآخر وليستْ رغبتك؟ لكن أليس ما يتحقق الآن هو رغباتك أنت يا باسم!؟

حسناً، هي رغباتي في أن أحلّ محل محمود، خاصة في موضوع إقامته في غرفة مستقلة، أهذا ما دفعه إلى تلك "الدراماتيكية" القدرية التي انتهت بوفاته، ألم يكن مزاحي في تركه يغرق -عندما كنتُ أعلمه السباحة - رغبةً مني في قتله؟!

ألم أرغب بعليا بعد لقائي بها؟!

ألم أرغب بأن أحصل على نقود محمود يوم ذهبتُ لأدفع للمحامي أتعابه؟!

هل داني من رغب بالسفر؟ أم أنا، يوم جعلتُ "إيميلي" باسم جاك، وأصبحتُ فرنسياً، وسخرتُ من داني؟!

وتوالت الاستفسارات في داخلي حتى أخرجني داني من شرودي صائحاً: يا رجل!

***** **********

اتصلتُ بأمي، وأخبرتُها بأنني سأنام عند داني.

الحقيقة لم تكن كذلك، ذهبتُ لغرفة محمود، أحضرتُ معي عشاءً خفيفاً من المقبلات، والكثيرَ من علب البيرة، بدأتُ أصرف من المبلغ الذي تركه محمود، فأنا وريثه الوحيد، لقد أورثني مشاكله، لذلك يحقّ لي أن أرث ماله، فالتركة تورّث بديونها ومالها.

شربتُ كثيراً، لكن لم تدر بي الغرفة، ولم أفقد الوعي، شعرتُ أنّي أشبهُ معالجاً إلكترونياً كبيراً بإمكانه أن يحاكي الحياة على الأرض منذ اللحظة التي كانت فيها كوكباً ملتهباً إلى هذه اللحظة التي يحدّثوننا فيها عن تأثيرات "الدفيئة" التي ستؤدي إلى ذوبان ثلوج القطب الشمالي.

محمود -الذي لم يسامح أباه - ترك جنيناً في رحم عليا، هذه المرة جعل الوضع أكثر كمالاً، فالجنين لا ذاكرة له، ولن يعاني من عقدة أوديب – كما لم يعانِ منها موبايل "النوكيا" الذي قمتُ ببيعه - لعدم وجود ذاكرة لاشعورية لديه؛ فعندما يُولَد، سيعتبر أباه أي ذكر قربه، وسيكون خذلانُ أبيه له خارجَ نطاق مداركه، كالخطيئة الأولى التي رتّبتْ نزولنا إلى الأرض، لكن الفرق

يكمن في أنني لن أكون كالله، فأجعل معرفتي بفعلة محمود ذات أثر رجعي، لأنّ الموت يجُبُّ ما قبله.

استيقظتُ في الصباح، نظرتُ حولي دون شعور بالغرابة، كأنني أعيش في هذه الغرفة منذ زمن بعيد، أعددتُ القهوة، فكرتُ بسفر داني، في الحقيقة ستكون هجرته أمراً رائعاً، فلا أحد سيشاركني بذاكرة المكان، الآن أستطيع أن أعيد تشكيل كل شيء، فموت محمود دفع حياتي قدماً، فجأة أصبح لدي غرفة مستقلة ومبلغ من المال.

نما شعور من السعادة في داخلي، أخيراً سأخرج من دوامة حياتي السابقة.

قُرع باب الغرفة، لا يمكن لأحد أن يعرف أنّي هنا حتى أبي قاسم، لن أفتح، لكن القرع استمرّ، هل تكون عليا؟ لم أتابع التساؤلات، نهضتُ، واتجهتُ نحو الباب، فتحته، فألقى عليّ رجل التحية، وقال: أنت باسم؟

- نعم أنا.
- أنا القبطان.
- لكن...
- أخبرك محمود أنني سأغيب طويلاً، ليس مهماً، قبل أن يقفز أعطاني هويته، وقال لي أن أعطيها لك، وأخبرني أنني سأجدك هنا، لقد زرته عدة مرات في غرفته هذه، وسكرنا معاً، والآن اعذرني، أنا مستعجل.
- لكن...
- إلى االلقاء.

راقبته يخرج من الممر المظلم ليختفي في وهج النور. أغلقتُ الباب وأنا أفكّر: أيّ ترتيب هذا الذي رتبته يا محمود؟!

الآن بدأتُ أشك بصورته التي رأيتها في التقرير االتلفزيوني.

ارتديتُ ثيابي سريعاً، اتجهتُ لمقهى "إنترنيت"، دخلتُ على موقع القناة التلفزيونية التي بثت تقريرها عن المهاجرين غير الشرعيين والذي به شاهدت وجه محمود الأزرق، فبحثتُ عن التقرير، نقلتُ نسخةً عنه من فضاء الشبكة العنكبوتية إلى شريحة ذاكرة رقمية، وخرجتُ.

اتجهتُ مشياً نحو البحر، دخلتُ قهوة لا على التعين، طلبتُ قهوةً مزدوجةً، وبدأتُ أدخنُ بشراهةٍ، وأرتشفُ القهوةَ الساخنةً، بينما كانتْ عيناي تتجاوزان الشاطئ إلى خط اندماج السماء بالأفق، والكثير من الأسئلة تحوم، وتصرخ في داخلي.

أخرجتُ البطاقة الشخصية الخاصة بمحمود، وبدأتُ بتقليبها بيدي، هل أنا شخصية من شخوص روايتك تفعل بها ما تريد؟ أي حبر كنتُ أرقد فيه قبلك يا محمود؟! وفي أي كتاب متهرئ على رف مكتبة يعلوها الغبار كنتُ أنا؟ هل جئتَ لتوقظني من نومي كما في قصة الأميرة النائمة، أو لتقبلني قبلة يهوذا للمسيح؟ هل هي لعنة روايتك التي لم أجدها في مكبّ الزبالة؟!

فيما أنا غارق بهلوساتي، دخلت عليا، واتجهتْ نحو طاولتي، وقالتْ: آسفة، تأخرت عليك.

- عفواً!؟
- كل ما في الأمر أنّ إحساساً راودني بأنّني سأجدك هنا، أخذتُ إجازة ساعيّة من الوظيفة، وقدمتُ.

تذكّرتُ اغتصابي لها، لماذا أسميه اغتصاباً، هي سمّته تطهيراً.

- هل فكرتَ بعرضي؟
- أعطيني بعض الوقت. لا أعرف. القصة خرجتْ عن أي منطق، وأشعر أنّني في عالم من الهذيان.
- ألا تطلب لي قهوة؟

اقترب الجرسون دون أن أشير إليه.

- لو سمحتَ، قهوة سادة.
- تعرف أنّي أحبها سادة.
- أذكرُ أنّكِ لم تظهري انزعاجاً يومها.
- ولم أظهر أي شكلٍ من الانزعاج عندما اغتصبتني.
- تسمين ما حدث اغتصاباً.
- لا، كل ما في الأمر أنّي قلتُ ما يجول بفكركَ، أمّا من جهتي فقد عرفتُ أنّك ستحررني من محمود إلى أبد الآبدين، وهذا ما حدث، خرجتُ من عندك، ومحمود قد انتهى من شعوري ولا شعوري، مضى، إلى حد الآن، شهران على حملي، والبارحة تحسستُ بطني، أشعرُ أن البنت سيكون لها لون عينيك البنيّتين.
- بنت وبعيون بنية...

قطع استرسالنا - بهذا الحديث الأحمق- قدومُ الجرسون، جاء بالقهوة، وأخذ منفضة السجائر، ووضع أخرى نظيفة.

- كما فعل هذا الجرسون، فعلتَ أنت، أنا الآن منفضةٌ جديدةٌ، أنتظرُ سجائرك.

أحبُ طريقة شربها للقهوة، كيف تلتقط الفنجان بثلاثة أصابع، وترشف السائل الأسود دون أن يلامس شفتيها، فلا يترك أحمر شفاهها بصمة على حافة الفنجان.

صراحةً كنت مطمئناً وهادئاً رغم الهذيان الذي أعيشه، حتى أنّ الوقت مضى سريعاً، وتمنيتُ لو تجلس أكثر، شيعتها بنظري، كانت تمشي بمحاذاة المقهى، أوقفتْ سيارة واختفتْ داخلها.

ما الذي يحدث؟ كأنّ كل شيء خرج عن السيطرة! فكل من أعرفهم يتصرفون بغرابة، يفعلون ما يريدون دون أن يحسبوا حساباً لشعوري أو أنّ لا شعوري قد خرج - ربما - من "اللا" النافية!؟

أخبرني محمود أنّه يحب أن تكون شخوص رواياته حرّة في أفعالها، تخرجُ عن سلطة الراوي العليم، وتشاركه في حيواتها محولة إياه لأحد شخوص الرواية أو يصبح قارئاً، مثله مثل أي متلقٍ آخر.

قلتُ وقتها له : التخييل مخدر، لم نتنبّه له بعد، إنّه أخطر من "الهيروئين"، أمّا الكتابة عن رقابة السلطة والتابوهات الثلاثة، فلا تندرج وفق رؤيتي للتخييل؛ فالمنع الذي يُعرف عند التعرّض للتابوهات الثلاثة مقننٌ ومضبوطٌ، ومن الواضح أنه ثمة اتفاق، يسمح للكاتب بموجبه أن يراقص الخطوط الحمراء مهما ارتفع صراخ السلطة، أضف أن الكاتب نفسه يرغب دوماً في أن تُطارد كتبه، فموضوع الحرية في الكتابة تمثيلية متقنة من قبل الجميع ومعروفة الأبعاد، فالتخييل الذي أقصده هو أحلام اليقظة، بشكل أو بآخر تتراكم هذه الأحلام لدرجة انحدارها - في وقتٍ ما- كسيلٍ يأخذ كل شيء في طريقه، ويعيد العمران للحظته البدائية الأولى، إنّه أشبه بثورة البركان.

دفعني تداعي أفكاري السابق إلى أن أتذكّر رواية محمود، وأن أسأل نفسي: هل كان محمود مشبعاً بتلك الرواية لدرجةٍ تحققتْ فيها رؤيتي للتخييل، فاستعجل السفر، وتركني أواجه ما طرحته من رؤى!؟

اللعنة، هل لمياء هي عليا، وطفل "النوكيا" هو جنينها، آه، كان موبايل عليا يشبه موبايلي السابق حتى في لونه، وفي موسيقى زياد الرحباني التي انداحتْ منه مرةً.

دفعتُ الحساب، وهرعتُ كالمجنون إلى البنك الذي تعمل فيه عليا، تقدمتُ من مكتبها، ابتسمتْ لي، ألقيتُ السلام، وأنا أحاول أن أكبح تلك القشعريرة التي انتابتني. كان الموبايل أمامها على المكتب.

- أتسمحين لي أن أرى موبايلك؟
- بكل تأكيد.

أخذته من يدها، أعرف موبايلي من الخدش الذي على شاشته، فهو يشبه شكل علامة استفهام دون نقطتها، إنّه هو بكل تأكيد.

- من أي محل قمت بشرائه؟
- الحقيقة تعطّل موبايلي السابق، فذهبتُ لصديق يعمل في بيع الموبايلات، واخترتُ موديلاً معيناً، أخبرني أنّه لم يصل بعد، فأعطاني هذا إلى حين وصول طلبي، لكني أحببته، فأبقيته معي، أمّا الثاني فما زال في علبته.

أعدته لها وقلتُ: أريد رؤيتك في غرفة محمود.

- عندما أنهي دوامي سأمر بك، وسأجلبُ طعاماً، فلا تأكل.

**الخلود**

يمضي عمري كالزمن في سرد الروايات، فالسنوات تُختصر في جملة، فكيف بالأسابيع والأيام والساعات! وأحياناً يطول الزمن حتى تتلاشى الكلمات!

على الشاطئ، طلب داني أن أفتح "البلوتوث"، وحدّد مجموعة من الصور التي تجمعني معه ومع محمود، وبدأ بإرسالها. أخذ موبايلي يطنّ بنغمة الرسائل المصوّرة كأنّه جهاز طوارئ، حتى أعطاني تنبيهاً بأنّ الذاكرة لم تعد تتسع، ومن المفترض أن أحذف بعض العناصر لتُرسل بقية الصور، فرفضتُ البقية الباقية من الصور، وقلتُ لداني: هذا يكفي!

طلب بالمقابل أن أرسل له الصور التي التقطُتها بكاميرا موبايلي، كنتُ قد أجريتُ حذفاً كاملاً للصور التي يظهر فيها محمود، فاعتذرتُ، وأخبرته أنّ موبايل "النوكيا" قد تعطّل، وذهبتْ معه كل الصور، وبجهازي الجديد لم ألتقط أية صورة بعد.

تأفف داني: لا أريد أن أكون في الغربة بلا صور أو ذاكرة! هذه الصور ستحميني من الوحدة إلى حين ألتقي بمحمود وعندها سأبعث لك صورنا عبر "الإيميل".

يستكمل ضاحكاً: الآن سأصبح كندياً بـــ"إيميل" حقيقي ليس مزيفاً كــــ"إيميلك"، أليس من المفترض أن يراسلنا محمود؟ لقد دققتُ كثيراً في رسائلي، خاصةً في صندوق الرسائل غير المهمة، هل فعلت ذلك!؟

- نعم فعلت، لقد تحققت من صندوق الرسائل غير المرغوبة، فلم أجد شيئاً.

كنّا قد انتهينا من لقاء الوداع، فغداً، سيسافر داني في الرابعة صباحاً، ضممته بشدة وقلتُ له: أنتظر منك رسائلَ في صندوق الوارد.

أخذ بالابتعاد وهو يقطع الكورنيش باتجاه الشارع، حتى تناهى من بعيدٍ كأنّه ولد صغير، أدرتُ ظهري لطرطوس، هبطتُ أكثر باتجاه كاسر الموج حتى بدأ الماء المالح ينهمر عليّ كأنّه قطرات من المطر.

قال"موبايلي": لم يعد هناك ذاكرة. ما أجمل هذه العبارة!

أيعقل أن يصدح بها عقلي يوماً؟ ما الذي سأحذفه؟ وما الذي سأبقيه؟!

في عصر "التكنولوجيا"، ما تحذفه لا يعود بل ينتهي، فهو لا يملك "نيغاتيف" كما في صور الأبيض والأسود، أو كما في الصور الملونة الملتقطة من كاميراتٍ ذات فيلمٍ أسود يوضع داخلها.

على "النيغاتيف" نظهر بشكل مقلوب كمخلوقات طوطمية غير متعينة، نتجلّى على ورق مقوى تحت ضوء أحمر كضوء الطوارئ أو كإشارة المرور، ونتوقف بشكل إجباري. هل فعل الأمر باللون الأحمر!؟

هكذا يبدو، فالآمِرُ يتلّون وجهه بحمرةٍ عندما يتلقّظ بأمره، و"النيغاتيف" يبقى مخزّناً لدى المصوّر بأمر من أجهزة المجتمع مع رقم تعود به إليه ليظهرك من السلب إلى الإيجاب، أمّا في التصوير الرقمي فتصّور من جديد فوق ما حذفتَ من صور، فأنت تستخدم شريحة الذاكرة الرقمية و "البيكسل" لمدة غير متعينة، التقط واحذف: ليسا أمرين باللون الأحمر، ببساطة تفعل ذلك دون أي شعور وتبعاتٍ و دون لون أحمر وأرشيف وأرقام، أنت سيد "النيغاتيف" خاصتك، حتى أنّه ليس "نيغاتيف"، ولا يظهرك بشكل طوطمي مقلوب، الصورة الأولى هي صورة أصلية تُستنسَخ أكثر من مرة، فصور "الديجيتال" كالنعجة دولي، أو هي كما قال بارت[15]: كتابة على كتابة، كتابة تمحو كتابة.

أتوقف هنا، أقطع تداعي أفكاري، ليست الصور كتابةً، فالتناص الموجود في الصورة- وإنّ تشابه مع التناص الموجود في الكتابة لجهة تكرارك كشخص في الصورة، وظهور تطوّرك في الزمن - إلّا أنّ هذا التناص يشبه حال الكلمة في القاموس، فلا نستطيع أن نقول إنّ المعنى الجامد المعيّن في القاموس هو ذات المعنى في السياق، كذلك الصورة هي سياق لا قاموس لكلماته.

أرغب ببساطة أن أملك قدرة الحذف، أن أنشئ ذاكرة منتقاة كما أريد.

رنّ الموبايل، إنّها عليا، قفزتُ من مكاني مستقلاً سيارة إلى غرفة محمود، ليست غرفة محمود، إنها غرفتي أنا، وسأطلب من أبي قاسم أن يجعل عقد الإيجار معي. وصلتُ، أدخلتُ المفتاح مخمناً أن عليا ستقرع خلفي الباب بلحظاتٍ، وجدتها في الداخل، والطاولة مملوءة بالطعام.

- تأخرتَ.
- كنتُ في وداع داني، سيسافر اليوم ليلاً.

غسلتُ يديّ، وبدأنا نأكل، انتهيتُ قبلها، أعددتُ الشاي بينما كانت تنظّف الطاولة، شربنا بصمت، ودخّنا، بدأتْ بالتخلص من ثيابها، واقتربتْ مني، ضممتها، وأنا جالس على الكرسي، لأقف بعدها ماسحاً جسدها بيديّ، مدّتْ يدها تفكُ أزرار البنطال، أخرجتْ عضوي، وبدأتْ تتلمسه كأنها تتلمس قلماً، تركتني، واستلقتْ على السرير، تبعتها، فاعتلتني، وأدخلتْ عضوي بعضوها، همستْ: هذا القلم يحتاج لمبراةٍ. بقينا حتّى المساء، مارسنا الجنس عدّة مرات، تكلمتْ، وهي تسند رأسها لصدري:

- يلزم الطفل عدّة رضعاتٍ حتى تصبح المرضعة أمّه في الرضاعة، كذلك الجنين يلزمه عدة نكحات مشبعات لتصبح أبوه.

ضحكتُ، وارتفعتْ قهقهتي في جو الغرفة التي يستريح فيها دخان سجائرنا، أشعرني ضحكي أنّ الغرفة ملكي، وأنّ عليا لي كاملةً كصورة الديجيتال دون "نيغاتيف".

قبّلتها كموج هادر يعيد تشكيل شاطئ، اعتليتها، رفعتُ ساقيها، وضعتهما على كتفي، وغرزتهُ عميقاً في داخلها، كسهم كيوبيد.

---

[15] - ناقد فرنسي

ليس ما يجعلك تملك الأنثى هو أن تنزع ثيابها أمامكَ، بل أن ترتديها أمامك، كيف ترتب نهديها في "سوتيانها"، وتتأكد من أن حرف قماشة "الكيلوت" لم يدخل في شق أليتها، كيف تشدّ من جسدها وهي ترتدي البنطال وتغلق سحابه، ببساطةٍ أن تراها وهي ترتدي إطارها كلوحة أثمن بألف مرة من إطارها.

قبلتني وغادرتْ، بقيتُ في السرير عارياً، أتأمل في الذي آلتْ إليه حالي، فقاطع ذلك رنّة الموبايل، إنها أمي.

تنبّهتُ أنني نسيتُ بيت العائلة، ونسيتُ أبي وأمي، وعندما رجعتُ، بررتُ انشغالي بسفر داني، لكنّ الإحساس الذي راودني في البيت كان إحساس الزائر.

دخلتُ غرفتي، أفرغتُ درجي الخاص في حقيبة بلاستيكية سوداء، فتناديني أمي للعشاء، أخبرها أنّي لست جائعاً.

أغادر البيت ...

أنا وحيد في طرطوس، ولا أصدقاء لي!

أتجهُ للغرفة، أفرغُ محتويات الحقيبة بدرجٍ فارغ، وأبدأ حملة تنظيف تزيل آثار محمود من الغرفة، استخدمتُ مساحيق لتنظيف الجدران، لا أريد لبصماته أن تبقى، ومن ثم أعددتُ أغطية السرير لآخذهم إلى المصبغة، كان في الغرفة حذاء قديم لمحمود، بعض القمصان الداخلية، "كيلوتات"، فرشاة أسنان، أدوات حلاقة، أوراق تبيّن أنّها لقصائده القديمة المنشورة في الجرائد، وصفحة يبدو أنّها من الرواية. للحقيقة؛ أجريتُ مسحاً كاملاً، وتخلصتُ من كل أغراضه، حتى شعرتُ أنني الآن في غرفتي أنا، ولا أثر لشعرة صغيرة من محمود.

جلستُ على السرير، وقرأتُ الورقة الوحيدة الباقية من الرواية التي كتبها محمود: **"عندما تكلم "باشلار" عن جماليات المكان، هل ما دعاه إلى ذلك غرفتكِ المقفلة حتى على الخيال!؟ الخيال واقع آخر، كيف لي أنْ أنجز واقعاً آخر وسارتر يقول: الآخر هو الجحيم، لربما الحل في التخمين، التخمين مطهرٌ، أخرج منكِ كالشعرة من العجين.**

**يقعُ شباككِ على جهة غربية، المطر من هندس ذلك، فكل نُطف المطر تندفع بجنون لتتناثر على بلور بويضتك التي تختفي في صَدَفة، سأغفل هنا الفتحة والضمة والكسرة والسكون، فمصادفتك خارجة عن النحو.**

**لقد خيّب سندباد حكاية شهرزاد، وقال عنك: اللؤلؤة المستحيلة.**

**نافذتكِ جسر يجلس على حافته المطرُ، يحمل مظلة، ويتأمل "نيغاتيف" قدميه في الماء.**

**أسكب لهاثي في معجن صلصال صوركِ، لعلّ خزفاً من وجودكِ ينفخُ فيّ الروح. أمارس عادتي كمراهق أحمق لا يقبل أن ينام مع أنثى غيركِ، أحتلم بكِ، فالاحتلام نضوج، ليست**

**القضية خيانة بل القضية أنّكِ فخختِ عيوني وقلبي، فكلما تمرّ أنثى تخرجُ صورتكِ كأنّها جانّ وتنفخ في شعورهن الريح، فيصبحن الصدى في صدور الجبال.**

**أنثى ديكتاتورية وسادية وتتلذذين بأن تجعلي شهر الصوم عمراً، وتقولين: صيام الناس شهر، وصيامك دهر.**

**لنعُدْ إلى غرفتكِ...**

**سريركِ ليس وردياً كما تشتهيه الإناث، وليس أزرقَ كما يشتهيه الذكور، أنتِ تنفرين من الجمال المحضَّر مسبقاً، سريركِ لا لون له إلا لون مزاجكِ، فمرة يرتدي الحداد، ومرة يرتدي الشهوة، ومرة يرتدي الصلاة.**

**سريركِ كتاب ملصق الحواف، أبلل إصبعي، وأفض الرتق، وأعلم أن الفتق سمّ. الغطاء رجل يتنكّر، يصبح خيطاً ليحاك، وينتظر كراهبٍ أن تدسّي نفسك تحته. قدماك لسان يدخل فم الغطاء كحلمة، تنزلقين عليه كموجة تلاعب صدر زورقٍ.**

**في خزانتكِ أعيش متخفياً كزرّ في قميص، كماركة قميصك الداخلي، كحرف "كيلوتك"، كزرقة بنطال الجينز، ألبس "سوتيانك" مثل خوذة، وأدخل حروباً مع كل الرجال الحالمين بدخول غرفتك...**

**لديكِ كرسيان في الغرفة، واحد لكِ وواحد لإثارة الغيرة، والسؤال: من تتخيلين أنّه يجالسكِ.. تتركين السؤال معلقاً كحبل مشنقة، يومياً أقترب من الكرسي، وأركله جانباً وأنت تبتسمين، تقولين لي: أيها الأحمق لا تنتحر لأجل أنثى، فالنساء كالريح، أجمل ما فيهن أنهن عابرات. فأردّ: أعرف ذلك، لكن أجمل شيء في الرجال الحماقات التي يرتكبونها عندما يعشقون حتى لو كان التدلّي بوسط الغرفة كمصباح.**

**مهووسة بالأحذية، أحذية تليق بدروبك، أشتهي أن تمشي في طريقي حافية، عندئذ سأقرأ خطوط القدر في باطن قدمك.**

**لو كنتُ رملاً لصرتُ مرآة في غرفتكِ، الرملُ المتحولُ لمرآة؛ واقعية سحرية، كم ستسألينني: من أجمل أنثى في الكون؟ وأنت تظنين أن المرآة تجيبك، بالأحرى أنا من يتكلم، ويقول: لستِ أنتِ!؟"**

*******       ************

حملتُ الكيس الأسود الذي وضعتُ فيه أشياء محمود، واستقللتُ سيارة إلى الكورنيش، مشيتُ مشياً سريعاً حتى وصلتُ إلى مكسر الموج، ورميتُ الكيس في الماء، فبدأ يغرق رويداً، رويداً، بمشهد ذكرني بالممثلة "كيت وينسلت" في فلم "التايتنك" وهي تلقي بجوهرة قلب المحيط في الماء.

في داخلي رغبة بأن أقول بضع كلمات كتشييع لمحمود، هل أقرأ الفاتحة على روحه؟ صدمتني تلك الرغبة، بسطتُ يديّ، وبدأتُ بقراءتها، وبعدها قلتُ: **(لترقد روحك بسلام)**، الجملة فيها خطأ، الروح لا ترقد بل الجسد، عدتُ، وقلتُ: **(ليرقد جسدك بسلام، ولتأكلك تلك الأسماك التي اشتهيتُ يوماً أن أبيع كل شيء لأصبح مثلها، ولتصعد روحك إلى خالقها).**

فكرتُ بالذي قلتُه، ولماذا قلته، في الحقيقة لم أكن أملك غير هذا الكلام، فهو من الذاكرة العشوائية، ولو كانت لي ذاكرة موبايل لكنتُ غير قادر على قول شيء، سيبقى الذكاء الإنساني متفوقاً على الذكاء الصنعي بهذه الذاكرة العشوائية.

عدتُ، واشتريتُ عدة زجاجات من البيرة، كان الطقس بارداً، وهناك احتمال لسقوط المطر، انتهى الصيف، وبدأ تشرين الأول منذ عدة أيام، سكرت وحيداً، وأنا أفكر بعليا، وبما قالته عن الرضعات والنكاحات، ابتسمتُ للفتوى التي سبقتْ بها شيوخ هذه الأيام.

اتصلتُ بعليا، وبعد كلمة " ألو" قلتُ لها: **(أحبكِ)**، وسمعتُ ذات الكلمة منها كأنها استنساخ، ليست استنساخاً، فحركة التشكيل في كلمتها مختلفة، استتبعتُ: غداً نضع نقطة في نهاية السطر، ونبدأ صفحةً جديدةً.

في الغد لن يكون الحبّ هو المتكلم، بل العقل عندما ينجز صفقةً كشراء بيت، كلانا سيشتري الآخر، وسيبحث في مزاياه، هي تريد أن أستر عليها، وأنا أريد أن يتم التقادم على سوء الأمانة، ستحمينا هذه النقائص من فضح بعضنا البعض، التواطؤ هو السرّ الأكبر للحياة.

تذكرت حلمي السابق -عن شبيهي الذي يلقي محاضرة أمام جمهور، والذي نالني بسببه في الحلم الكثير من الضرب- فدفعني تذكر الحلم لأن أمشي باتجاه الحديقة. كانت الساعة العاشرة ليلاً، والباب مقفل، قفزتُ فوق السور، واتجهتُ نحو المسرح، وفي الوسط بدأتُ خطبتي السابقة عن الجنة والسياق.

صوتي المرتفع قاد حارس الحديقة ليتبين ما الذي يحصل، وعندما انتهيتُ صفّق بيديه، وصاح من الأعلى: على الرغم من أنّني لم أفهم ما قلته، لكنك تمثل بشكل جيد، والآن غادر قبل أن أخبر الشرطة بأنّ ممثلاً مجنوناً في مسرح الحديقة يلقي خطبة -لا أعرف عن ماذا- للمقاعد الفارغة.

- معك حق يا عم، إنها مقاعد فارغة، أليست الحياة مقعداً فارغاً عليك ملؤه بالكلام؟ شكراً لك.

عدتُ للبيت ونمتُ. في الصباح، استيقظتُ باكرًا على غير العادة، أعرف أن حبل الكذب قصير، لكنّه ينفع لربط الدعائم بعضها ببعض، جلستُ مع أهلي، وشربتُ القهوة معهم على غير العادة أيضاً، وتحدّثتُ إلى والديّ:

-لا يمنع أن نفخر بعد الثلاثين من عمرنا، ليس بنفس الطريقة التي يفخر فيها الولد بُعيد احتلامه، على كل حال لم يكن له بدّ من تلك الطريقة في الفخر لأن الأعمار قصيرة في ذلك

الزمن، في هذه الأيام إذا فخرنا مبكراً، فكيف سنملأ ما بين قوسي الحياة؟ وجدتُ عملاً، واستأجرتُ غرفة، واليوم سأنتقلُ إليها.

صمتنا غير مصدقين، وقفتُ، قبلتُ رأس أمي، ووضعتُ يدي على كتف أبي، ضغطت بحنان،وقلتُ: أنا ذاهب للعمل.

***************

ركبتُ باصاً ذاهباً إلى خارج المدينة، أعرف المكان الذي فيه الكنيسة التي تعهدها المعلم سركيس. نزلتُ من الباص، كانتْ بعيدةً قليلاً عن الطريق، يؤدي إليها ممر حجري بأحجار سوداء ينبت العشب بينها.

في الباحة الأمامية كان سركيس يحفّ قطعة من الخشب، ألقيتُ عليه السلام، خالني شخص من الجوار.

- المعلم سركيس.
- نعم.
- أنا باسم صديق داني.
- أهلاً، لقد سافر.
- أعرف ذلك، قال لي تستطيع أن تجد عملاً عند المعلم سركيس.

ابتسم، أشعل سيجارة، ومدّ لي بواحدة، تناولتها، أشعلها ونفخنا الدخان.

- ليكن، أجلبتَ معك ثياب عمل؟
- لا.

ضحك: لقد ذكرتني بأول يوم عمل لداني، امسكْ ورقة الحفّ هذه، واذهب إلى ذلك الشباك، الحفّ لا يحتاج إلى شهادة جامعية، من الأعلى إلى الأسفل وبالعكس، ابدأ بالورق الخشن.

أخذت الورقة، وبدأت بالحفِّ، ملأ الغبار الأصفر المتصاعد من الخشب الهواءَ المحيطَ بي.

مضى الوقت سريعاً، وتراكم حمض اللبن في عضلاتي، اتصلتْ عليا، وفرحتْ لما فعلتْ.

دخلتُ الغرفة، واغتسلتُ، كنتُ قد نسيتُ أغطية السرير في المصبغة، أكلتُ بيضاً مقلياً، وغرقتُ في النوم مستيقظاً على نغمة موبايلي: (من كتر ما ناديتك وسع المدى).

عليا تنتظرني في حديقة المنشية.

*****          **********

لم أفتح موضوع إجهاض عليا، وصرتُ أضع أذني على بطنها، ولم نُضع الوقت، ببساطة تزوجنا كما تمضي الحياة دون فلسفة أو تأمل، فالجنة أن نندرج في السياق مثل عاملات النحل في الخلية، أما شؤون الملك فليست من شأننا.

نسيتُ موضوع الوظيفة، أخذتُ قرضاً على راتب عليا، مكنني من استئجار محل لبيع إطارات للوحات الفنية والصور الشخصية في حيّ الفقاسة.

كانت حياتنا تمشي بهدوء، اتصل داني، وشكا من صعوبة التأقلم في الغربة، أخبرني عن أحواله، وفعلتُ ذلك أيضاً دون أن أحدد أن عليا - صاحبة محمود سابقاً - هي زوجتي.

أخبرني أنّه يفكر بالقدوم إلى لبنان للبحث عن ماريا، وسأل أيضاً عن محمود، وقال إنّني ناكر للصداقة، واستغرب كيف نسينا، أمّا هو فيتذكر كل تلك اللحظات التي عشناها معاً، وأخبرني أنّه سيطهّر ابنه بمجرد أن يولد كي لا يحصل معه ما حصل مع أبيه، فمن أين سيجد له صديقاً رائعاً مثلي ليبوّل أمامه بتلك الشجاعة، ومدّ حديثه حتى وصل إلى رغدة.

***** **********

أنهيتُ موضوع محمود نهائياً، ولكي أخلّص عليا من الكوابيس المتعلقة بعودة محمود، وضعتُ شريحة الذاكرة في "اللابتوب"،وجعلتها تشاهد التحقيق عن المهاجرين غير الشرعيين.

عندما بكتْ تأكّدتُ أنّ محمود قد انتهى نهائياً من أي ذاكرة شعورية أو لاشعورية لديها، وبالنسبة لشعور الغيرة فقد انتهى من داخلي حتى بأثره الرجعي، فقد كنتُ أخاف من نظرة شماتة أو لؤم أو انتقام منها لموت محمود غرقاً، إذ يُعتبَرُ موته جذراً مناسباً لتبقى ذاكرتها.

كبر بطنُ عليا كقمر، نما ليصبح بدراً، وأحاسيس الأب في داخلي نمتْ بطريقة غيّرتْ نظرتي للكون وعبثيته وعدم جدواه.

في المساء كنّا نتمشى على الكورنيش، بهدوء نقف على كاسر الموج، أضمّها طويلاً وأنا أتحسس ابني القادم.

في الليل أسعفتُ عليا إلى مشفى الحكمة القريب من البحر، أريد لطفلي أن يسمع صوت البحر منذ اللحظة الأولى لولادته. لم أتصل بأحد، شددتُ على يدها وهي تدخل غرفة العمليات، خرجتُ للشرفة، وبدأتُ بالتدخين، تفقّدتُ محفظتي لأتأكد من كمية المال، تحسستُ شيئاً قاسياً في الجيب السريّ للمحفظة، عادةً ما أضع فيه شيئاً مهماً، فتحته، وإذ بهوية محمود، ارتجفتُ وأنا أرى عينيه تحدقان فيّ، كيف نسيتها كل هذا الوقت.

غادرتُ المشفى سريعاً، عبرتُ الشوارع التي تفصلني عن الكورنيش بركضٍ محمومٍ، قطعتُ الكورنيش كالمجنون، وتوقفتُ عند مكسر الموج، ورميتُ بالبطاقة الشخصية إلى الماء بكل ما

أملك من قوة بعد أن وضعتها مع حجر في كيسٍ وجدته في الطريق، وصرختُ: محمود لقد انتهى كل شيء.

عدتُ إلى المشفى على عجل كان العرق ينضح مني، اتجهتُ إلى إحدى الممرضات، سألتها هل خرجت عليا، أجابتْ بالنفي، سقطتُ على إحدى الكراسي، وأنا ألهثُ.

***************

طنّ موبايلي برسالةٍ أغفلتها قليلاً، وبعد فترة جلستْ عليا تستريح على صخرةٍ كما كانت تفعل بكل مشاويرنا، فتحتُ الموبايل، وقرأتُ رسالة باللغة الإنكليزية تقول: كيف حالك باسم، أنا محمود.

تزلزل كل شيء حولي، كأنّ الماضي أرضٌ أخرجتْ أثقالها، نظرتُ إلى عليا، وقلتُ لها: أعطيني موبايلك/موبايلي، أخذته، ورميته في البحر.

صرختْ: ماذا تفعل؟!

- لا شيء، الماضي سيمضي.

*****                    **********

كالملدوغ استيقظتُ من هذا الكابوس، كنتُ قد غفوتُ على الكرسي، وأنا أنتظر أن تنتهي العملية القيصرية لعليا.

تسرب إلى سمعي صوت طفل يصرخ الساعة الرابعة صباحاً، وفي ذاكرتي صورة سقوط موبايلي القديم من يد عليا في الماء عند مكسر الموج قبل زواجي بها بيوم واحد.

الصباح كان منعشاً، تركتُ عليا تستريح، خرجتُ إلى الكورنيش، طلبتُ فنجان قهوة من الحجم الكبير، وجلستُ على حجارة الشاطئ. كنتُ قد اشتريتُ جريدة الثورة، بدأتُ بتصفّحها والريح تلعب بوريقاتها، في ملحقها الثقافي يقع نظري على قصة بعنوان "عائلة سعيدة جداً" للكاتب باسم سليمان:

قصة: **عائلة سعيدة جداً.**

ملحق جريدة الثورة الثقافي، العدد:22340 - تاريخ: 2011/2/16

تسلّل بهدوء إلى الجماعة الواقفة وانغمس بين أفرادها، كان يرتدي بنطالاً أسود، أجردّ لونه بسبب التراب والغبار العالقين به، وقميصاً أبيض مائلًا للسواد لاختلاط الغبار بالعرق المتفصّد من جسده اللاهث. حاول جاهداً ألا يبدو غريباً عنهم، فضبط إيقاع تنفسه كمن يمارس اليوغا.

هدأتْ، رويداً رويداً، نبضات قلبه، ثمّ أغمض عينيه عدّة مرات حتى صفا لونهما، راقب باهتمام الشخص الغاضب في وسط المكان الذي وجد نفسه فيه بعد هربه، وهو يلوّح بيديه، ويتلفّت يميناً ويساراً، ومن فمه تخرج كلمات الغضب مع رذاذ من البصاق، فجأة توجّه الشخص الغاضب إلى الجماعة التي انضم إليها منذ قليل الوافد الجديد، وأشار بيده إليه، وتكلم: أنتَ، يا صاحب القميص الوسخ، أتجيد السباحة!؟

لم يستطع أن يتخلّص من نظرات الشخص الذي عرِف بعد ذلك أنّه المخرج لفيلم يصوّر في ذات المكان الذي قاده الهروب إليه، فأجاب بالثقة المصطنعة التي امتلكها، وهو يجتاز حاجز التفتيش، لكن الذي حتم نوعية الإجابة كان ما تناهى إلى أذنيه من ضجيج صوت سيارة الشرطة، فأسرع في الإجابة: بالتأكيد أستطيع.

المخرج: إذن، تعال. ألبسوه غير هذه الثياب. هيا، عليك أن تسبح من هذه الضفة إلى الآخرى، لا تخف، سنربط حبلاً إلى خصرك.

- ليس من داعٍ لذلك.

جرى، وقفز في النهر كما قال له المخرج، تتعقبه كاميرتان، واحدة على زورق والأخرى من الشطّ.

قريباً من موقع التصوير وقف رجلان بثياب رسمية سوداء. ترجّلا من سيارة للشرطة، وبدآ يتابعان المشهد، همهم أحدهم: لا ريب أنّه قد سبح للطرف الثاني من الضفة.

عادا لسيارتهما، وانطلقا نحو جسر يبتعد خمسة كيلومترات عن منطقة التصوير. جاهد الرجل بقوة، فقد كان تيار الماء قوياً، وكان قد فكّر مسبقاً، أنّه ما أن يصل للطرف الآخر، سيتابع هروبه.

على الزورق كان المخرج يصفّق له، ومن ثمّ مدّ يده ليساعده في تسلق ضفة النهر قائلاً: ستعمل معنا.

عادوا جميعاً على متن الزورق إلى الضفة التي انطلق منها، جلس وسط الزورق، وقد وضعوا عليه غطاء، كان يلهث، لكنّه بات أكثر أماناً، جال بنظره ليرى شبح سيارة الشرطة يتهادى من بعيد، مثيرة زوبعة من الغبار على الجانب الآخر من النهر.

**************

**شقّت الماء كأنّها زهرة لوتس، ارتجفتْ كإوزة تنفض ما علق بها من ماء، ثوبها يلتصق بها، نهداها قد شفّ عنهما الثوب المبلول، وحلمتاهما متأهبتان كجندي في حراسته جعله البردُ أكثر يقظة. كان جسدها يوحي بوحشية مضمرة تفترس الناظر. حدّق فيها كما فعل كامل فريق التصوير، واستغرق في نظره حتى سمع كلمة "cut"، ابتعدتْ عن مكان التصوير لتعود بثياب جافة، وقفتْ بقربه فيما تابعوا تصوير المشهد، مع الممثلة الحقيقيّة، فقد بُللَ شعرها كأنّها هي التي خرجتْ من الماء...**

- **معك سيجارة!؟**

**باغته السؤال، امتدتْ يده إلى جيب قميصه الوسخ، وأخرج علبة السجائر، والولاعة. أشعل لها سيجارة، أخذتْ تدخنها كأنها تأخذ نفساً من الهواء بعد غرق.**

- **منذ متى تعمل هنا؟**
- **من اليوم.**
- **لم أشاهدك من قبل.**
- **كنتُ مسافراً.**

**كان حديثاً مقتضباً، لكنّه كان كافياً ليلمح كل منهما نظرة ترقّب وخوف في عيون الآخر عند كلّ مشهد خطر ينفذانه بدلاً من النجمين.**

***************

**البناء قد احترق بالكامل، الكتلة البيضاء تحولتْ لكتلة شاحبة، تهدّم الطابق الأخير، وسقطتْ بعض الجدران كثوب حداد أنهكه كثرة الموت.**

**تحت مظلات ليست بعيدةً عن البناء الذي كان يُسمى "مبنى الدولة" جلس عدّد من الكتّاب بالعدل يدونون معلومات تُعطى من رجال ونساء وأولاد، كانوا قد اجتمعوا حول طاولات الكتّاب بالعدل، حدثت مناقشات حامية، وارتفعت الأيدي، مما استدعى تدخل الشرطة عدّة مرات، لكن الأمر دوماً كان ينتهي إلى تسويف وتأجيل فيقول الكتّاب عنه: إنّه سيرتّب حلّ الأمور، ثم يبتعد الموجودون وهم يتمتمون كلماتٍ وشتائمَ ولعنات.**

**احتراق المبنى الذي ضمّ جميع دوائر الدولة والذي أصبح حدثاً مفصلياً، فصار الناس يقولون: ما قبل الاحتراق أو ما بعد الاحتراق، وهذه الجمل باتت تُذكر في الدعاوي المحتاجة طرق إثبات ورقية،والتي كانتْ المستندات المكتوبة هي الطريق الوحيد لها، أما الآن فقد غدتْ الشهادة - التي ذهب مجدها بعد اعتماد الوثائق الكتابية - هي الطريق الوحيد المعتمد.**

**تكلمت المدينة عن حدث احتراق مبنى الدولة طويلاً، فعاد النقاش السابق عن الخطأ القاتل في تجميع دوائر الدولة ببناء واحد، وقيل إنّ السبب يعود إلى تاجر العقارات الذي تملّك كل الأراضي التي تحيط المبنى؛ هذا ما كتبه أحد الصحفيين الذي مات في احتشاء قلبي رغم أنّه في ريعان شبابه!**

**كانا قد تسليا بالذي سبق كحديث تضمّن مناداة كل واحد منهما الآخر، باسمه الجديد مع نظرة دهشةٍ بدأتْ تغفل رويداً رويداً، وكأن الاسمين الجديدين كانا لهما منذ الأزل، وللحق بما أنهما دوبليران[16]،فلهما القدرة على التمثيل، أمّا الولد، فلم يهتم كثيراً بالاسم الجديد، فهو لم يكن يملك اسماً قديماً، بل أسماء عديدة حسب الأشخاص الذين يستغلونه، كل ما عناه هو أن ينادي له من قبل والديه باسمه الجديد، وتمنّى لو يرى ذلك الولد الذي عيّره بأنه لقيط، وردّ عليه بأنّه يملك والدين لكنهما في السماء، ورغم ذلك سيعودان.**

**تقدّم الرجل والمرأة والولد، تكلم الرجل: هذه بطاقاتنا الشخصية، لقد تعرضنا لسرقة في وقت سابق من هذا الشهر، وقدّمنا بلاغاً بذلك، ولم يبق من أوراقنا الثبوتية غير هاتين البطاقتين.**

**الولد: ماما أريد أن أشرب العصير.**

**الأم: عندما ننتهي سأشتري لك.**

**نظر كاتب العدل إلى الولد، وفكّر بأنّه ليس من الضروري أن يشبه الطفل أبويه، وتكلّم:**

**البطاقتان كافيتان، وستنشر القيود الجديدة في الجريدة الرسمية، ومن لديه اعتراض سيكون له الوقت الكافي لذلك، وخلال شهر تستطيعون الحصول على الأوراق الثبوتية التي تريدونها، والآن لنملأ هذه الجداول.**

**سردا أنسابهما الجديدة المدونة في البطاقتين الشخصيتين اللتين سرقتا من أحداث الفيلم الذي يُصوّر، ولأول مرة لم يشعرا بتأنيب الضمير خاصة أمام ابنهما الجديد.**

***************

**حمل كادر التصوير معداتهم، وانطلقت السيارات بجنون لتقف قرب البناء الذي يضم الدوائر الحكومية في المدينة، وأخذوا يصورون، والمخرج يصيح:**

**أنت صور من هذه الناحية، ويقول لآخر: اقترب أكثر.**

**أحدهم صعد إلى سطح بناء مجاور، وبدأ التصوير. الكاميرات تأخذ لقطات كاملة للحريق، وللإطفائيين وللناس المتجمهرة وللوجوه الواجمة والباكية وللجثث المحترقة التي يخرجها المسعفون من مبنى الدولة.**

**في المساء وعلى طاولةٍ في أحد الفنادق همس المخرج لمساعده: اللعنة، يا للحظ الرائع، لقد كان الحريق هبة سماوية.**

**همهم المساعد: البطاقات الشخصية، غداً، ستُنجز.**

---

[16]- شخص يقوم بالأعمال الخطرة بدلا من الممثل مفرده: دوبلير

**المخرج:**

**أريد الدقة، الدقة، الواقع كما هو، أريد أن يرى المشاهد البطاقة الشخصية التي يحملها دوماً معه، أمامه على الشاشة البيضاء، وعندما يخرج من الفيلم لن ينسى الأسماء، وسيبحث عنها في واقعه، أريد أن تكون الخدعة كاملة كالحقيقة.**

**المساعد: الحريق سيتكفل بإنجاز الخلطة السحرية للواقع وللخيال، فالمبنى المحترق أصبح في ذاكرة الناس في طول البلاد وعرضها، وإن اختلفت زوايا كاميراتنا عن زوايا كاميرات البث المباشر وقتها إلّا أنّ المبنى واحد.**

**المخرج: بصحتك.**

**المساعد: بصحتك.**

***************

**لم يحتج إلى وقت كبير كي يجتمع بها في مكان دافئ، تحت الجسر الذي عبره راكضاً متوجساً، أما الآن فهو يتمدّد قربها متنعماً بحنان حضنها.**

**أحسا بأنّ أحدًا ما يراقبهما، وقف، واتجه مسرعاً إلى شجيرات صغيرة تحجب عنهما الأفق، فوجد طفلاً في العاشرة، صاح به: من أنتَ؟**

**جفل الولد، وسقط في ماء النهر، قفز وراءه، وأخرجه، وفي الطريق لغرفة بائسة في أحد الفنادق التي كانت المرأة تستأجرها، رقدوا ثلاثتهم على سرير واحد.**

***************

**-من هذا؟ تكلم المخرج، ونظر بهدوء لعيني الولد المكسورتين كالزجاج ولأصابعه القاسية وشعره الملبّد بالأوساخ.**

**- إنه ابني، وافق الولد بإيماءة صغيرة.**

**- وهل يستطيع أن يدخل إلى مكبّ الزبالة دون أن يخاف، وينبش بين الأوساخ!؟**

**- نعم، يستطيع.**

***************

**لم يكن صعباً عليه أن يدخل إلى غرفة مساعد المخرج، فتّش بدقة، وجدهما في حقيبة بنية اللون موضوعة في مكتبة صغيرة قرب السرير، أخذ البطاقتين الشخصيتين، وخرج إلى بهو الفندق الفخم، أوقفه المخرج:**

**أنت دوبلير رائع وابنك أيضاً – ابتسم – وتلك المرأة، صديقتك.**

**- بل زوجتي.**

**- حقاً، لم أعرف، هذا "الكارت" فيه أرقامي الهاتفيّة كلها، اتصل بي، قريباً سأبدأ عملًا جديداً.**

***************

**حافظتْ على رباطة جأشها بينما اقترب الرجل منها، كان ولدها يُمسك بيدها، متأرجحاً للخلف وللأمام، تجاوزها الرجل ثم عاد إليها، وحدّق بها.**

**- ماذا تريد يا هذا، ألا تحترم خصوصيات الناس!**

**- العفو، لقد ظننتُ..اعتذر، اعتذر !**

**ومضى يتلفّت للوراء وهي تراقبه بعين وقحة.**

**ابتعد الرجل صامتاً، كان يفكّر: إنها هي! العاهرة، لكن ليست هذه نظراتها التي أعرفها، تلك السافلة الخادعة التي أخذتْ مني ثمن مضاجعتين، سأسترد ديني منها، مهما طال الزمن.**

***************

**بعد أن أنهى قاطع التذاكر عمله، والذي لم يلحظ شيئاً مريباً في البطاقتين الشخصيتين للرجل والمرأة اللذين يقف بقربهما طفل صغير. صعدوا إلى القطار، فجلس رجل وامرأة وولد بأسماء جديدة كانت لمشهد في فيلم.**

**أقلع القطار مطلقاً صفيره الحاد، فيما عيون سعيدة هادئة مطمئنة تنظر من النافذة، نحو حياة جديدة، أمّا المدينة، فكانت تبتعد كذكرى باهتة لرجل هجر مهنة التهريب والسرقة، وامرأة تخلّتْ عن الزوايا المعتمة والثياب المثيرة، وولد كان يرتعد خوفاً في الليل، أما الآن فيجد بديلاً عن حياته السابقة، في حضن أمّه الحنون، وفي يد والد تربت على كتفه.**

***************

**صرخ المخرج:** cut[17].

[17] كلمة يستخدمها المخرج السينمائي لإنهاء المشهد الذي يصوره

( تمت)2013/1/29

BASEM SOLIMAN
NOKIA NOVEL

باسم سليمان

نوكيا

«رواية»

# نوكيا ...

ديلمون، الجنّة، أطلنطس القارّة التي غرقتْ بسبب تجبّر أهلها كل ما سبق، هو يوتوبيا تنهيها الخطيئة؛ ليقوم على خرابها الواقع.

في البدء، كانت الخطيئة! إذاً، كيف نبني ما يُفترضُ بأنّه صحيح على مقدّمة خاطئة؟! فالمقدمات الخاطئة تعطي نتائج خاطئة، والمصيبة، أنّ ما اعتُبِر خطيئة كان فعلاً لاحقاً بأثرٍ رجعي، أو أكثر من ذلك كان فعلاً متعدّياً، مستقبلياً.

إذاً هناك بداية صحيحة تختفي وراء الخطيئة! لكن هذه البداية الصحيحة لم يكن من أهدافها إعمار الكون؟!

فلنسلم جدلاً، ونقرّ بأنّ الخطيئة هي مبدأ الكون، وعلى ما تقدّم نبني حياتنا؛ إذاً ما الخطيئة التي يجبُ أنْ نرتكبها ليعمر وجودنا؟!




